

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00979 9424

P
7
1

Library of
The American University
at Cairo

appy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+.+

PROVERBS 3-13

Ex libris datus
in memoriam
James Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania



00. B 3096

pt 842000

1815

دكتور عبد الحفيظ حمزة

PJ
7578
H26
1945

حكم قراقوش

مطبعة دار الفنون البادية في بغداد

OCLC
60506400

B1246031X
13815295

892.717

٨١٧

Ab 312

ص. ٢٢

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة ومطبعة دار الكتب والعلوم
بمكة المكرمة

٢٠٠٠/٤٤/١١

26776

مقدمة

كثيرا ما يرث الملوك فيما يرثون رجالا يخلصون لهم ، ويعينونهم على حياطة ملكهم ، ويكونون أنفع لهم من المال والذخائر التي يتركها لهم الآباء والأجداد .
كان نور الدين محمود سلطانا على الشام في أثناء وجود الخلافة الفاطمية في مصر ؛ ثم لأمر سياسية ومذهبية ، حدثت نور الدين نفسه بالاستيلاء على الديار المصرية ، فبعث إليها بقائده العظيم أسد الدين شيركوه ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ؛ وقدم شيركوه مصر ، وظفر فيها بالوزارة من يد الخليفة العاضد ، ثم مات شيركوه ، فسعى للوصول إلى الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين ، فظفر كذلك بها ؛ وأعانه على الوصول إليها رجلان خطيران : أحدهما فقيه عظيم ، هو عيسى الهكاري ؛ والآخر جندي جريء ، هو قراقوش .
ثم استقل صلاح الدين بإدارة الشؤون المصرية شيئا فشيئا ، واستعان على ذلك برجل ثالث ، كان من الذخائر التي تركها له شيركوه ، هذا الرجل هو القاضي الفاضل ، نخدم الثلاثة صلاح الدين ، كل في حدود موهبته ومقدرته ، وبذل الثلاثة جهودا متقاربة في إقامة الدولة الأيوبية ، التي خلعت دولة الفاطميين ،

وقامت للمسلمين بهذه المهمة الكبرى في تاريخهم الوسيط ، وهي مهمة طرد الصليبيين عن بيت المقدس .

ومعنى ذلك أن الثلاثة أخلصوا إخلاصا عظيما لدولة صلاح الدين ، بحيث يصعب علينا أن نفاضل بينهم ، أو أن ندعى أن الدولة في أول أمرها كانت تستطيع أن تستغنى عن أحدهم فيما أحاط بها من أمور ، وألمَّ بها من خطوب . ومع ذلك لا يذكر الناس في مضر والشرق شخصية قراقوش ، إلا مقرونة بالهزء به ، والسخرية من عقله ، إلى حدٍّ أنهم يتهمون به بالخبل والجنون ، ولهم في ذلك أخبار وحكايات يتندَّرون بها في مجالسهم ، ويحكون حولها الحكم والأمثال ؛ حتى لقد شاعت بينهم هذه العبارة « حكم قراقوش » ، يقصدون بها أن فلانا من الناس يريد أن يظلمهم أو يبطش بهم ، أو يتعسف في حكمهم ، ويذهب في ذلك مذهب المجانين الخبولين ، كما فعل قراقوش بالمصريين وغير المصريين !!

والواقع أن قراقوش لم يظلم ولم يتجبر ، ولم يبطش بأحد من المصريين أو غيرهم من المسلمين ، ولم يصدر في عمل من أعماله عن عقل يمكن أن يوصف بالخبل أو الجنون . وأنه براء من هذه التهم التي كملت له زورا وبهتانا ، وزيدَ فيها على مرور الأيام . وإن في صفحة تاريخه الجيدة ، وسيرته الحميدة ، وفي عظم الجهود التي بذلها في سبيل الدولة الجديدة ، ما ينهض دليلا على صدق ما نقول . فما سبب هذه الأحدثة السيئة التي اشتهرت عن قراقوش يا ترى ؟ وعلى من يقع الذنب في هذه الصورة المشوهة ، التي مسخت تاريخه الأبيض الجميل ؟ ! سبب ذلك كله هو الأدب ، والتبعة في ذلك كله تقع على الأدباء ، فهؤلاء

هم الذين شوها سمعته ، ومسخوا للناس صورته ، فإذا هي صورة تثير في نفوسهم الضحك والازدراء ، وإذا هي تصلح أن تكون مادة للسخرية من الحكام ، وما يصدر عنهم من الأعمال .

ألا ما أقدر الأدباء في كل زمان ومكان على أن يقلبوا الحق باطلا ، والباطل حقا ، والسخيف من الأعمال حسنا ، والحسن سخيلا ؛ وكم في تاريخ البشر من رجال عظماء أهملهم الأدب ، وعفى على آثارهم ، ورجال ليسوا بعظماء أبي الأدب إلا أن ينهض بهم ، ويخلق منهم بالكذب أبطالا يتغنى الناس بمدحهم ، وهم ليسوا أهلا لهذا المدح !

ولا تصدق هذه المقالة على رجل كما تصدق على هذا الرجل ، الذي نتحدث عنه في هذا البحث ، وهو قراقوش . ولو علم هذا الرجل مبلغ تأثير الأدب ، وعرف مبلغ قدرته على تسجيل الحوادث ، وطبعها بالحق أو الكذب ، لما ادخر وسعا في تملق الأدباء ، وإن كان الملق نفسه بغيضا إلى قلبه ، ولما قصر في التجبب إليهم بالكلام حينئذ ، وبالمال حينئذ آخر ، حتى يكونوا له أبواقا تذيع فضله ، وتعلن في الناس مجده ، وتنسج حوله هالة رائعة من البطولة ، ثم تترك للخيال الشعبي بعدئذ أن يصعد بهذه البطولة إلى درجة التقديس ، أو ما يشبه التقديس ، وفي البشر استعداد دائم لأن يرتفع بعضهم ببعض إلى مثل هذه الدرجة ، ومن أجل ذلك لا نكاد نعرف دعوة دينية أو سياسية أو اجتماعية قد استغنت يوما عن الأدب والأدباء ، أو سكنت حينئذ عن اصطناعهم لها ، واتخاذهم أداة لنجاحها وزيوعها ، وحمل الناس جميعا على تصديقها ، والأخذ بها .

غير أن قراقوش كان جنديا لا خبرة له بالأدب ، ولا علم له بأسره ، ومبلغ

سحره ؛ وقد شاءت الأقدار أن تسلط عليه لسان أديب أريب ، هو ابن مماتي ،
كان يشغل منصبا كبيرا في الدولة الأيوبية ، ولأمر ما (وستعرف أنه أمر يمت
إلى السياسة بصفة) كتب هذا الأديب كتابا في هذا الجندي الصبور ، وجاء
كتابه هذا سخرية مرّة منه ، ومن طريقة حكمه ، وأقبل الخاصة والعامة على قراءة
الكتاب ، وأخذوا يومئذ بقوة سحره ، وشدة أسره ؛ وذهبت العامة تعتقد الشر
والخبل في هذا الرجل ، والرجل نفسه بعيد عن كل هذه التهم ؛ ولكن ما أصدق
الذي يقول : « لا كرامة لنبي في قومه » .

وانتقل الكتاب نفسه من مصر إلى غير مصر من أقطار الإسلام ، واتخذ
لنفسه في كل قطر منها صورة تتفق مع ميول هذا القطر وظروفه ، وتختلف عن
صورته في الأقطار الأخرى ، وأوشك الناس في جميع تلك البلاد أن ينسوا تاريخ
الأمير العظيم قراقوش ، وأصبحوا لا يكادون يذكرون غير كتاب « الفاشوش » ،
وهو الكتاب الذي وضعه هذا الأديب الداهية في ذمّه والغض منه .

وفي هذا الكتاب الذي بين يديك الآن ، يقف الأمير قراقوش في ناحية ،
ويقف الأديب الذي ظلمه وشوه سمعته في ناحية ثانية ، ويحكم الأمير
المظلوم إلى التاريخ ، فينظر التاريخ نظرة عادلة في قضيته ، ويعمد في الفحص
عن هذه القضية إلى طريقته السهلة الواضحة ، وهي أن يستعرض صفحته ،
ويستقرئ حوادثه ، ويمحص وقائعها ، وأخيرا يصدر الحكم الذي ينصفه به .

وبعد ، فنحن نعلم أن دراسة هذا الكتاب الذي نتعرض له الآن ،
كدراسة غيره من الكتب التي على شاكلته ، تقتضينا النظر إليه من نواح
ثلاث :

أولاًها — الناحية العلمية ، ونعني بها نشر الكتاب نشرًا علميًا صحيحًا .
والثانية — الناحية التاريخية ، ونعني بها تمحيص الظروف التاريخية
التي أحاطت به .

والثالثة — الناحية الأدبية ، ونعني بها البحث في الكتاب ، من ناحية
أسلوبه وألفاظه ، ونوع الأدب الذى يشتمل عليه .

فأما الناحية العلمية الخالصة (وهى نشر الكتاب) ، فيؤسفنا هنا أن نقول
إننا لم نعثر منه على نسخ كثيرة ، تتيح لنا فرصة العمل العلمى على الوجه الصحيح .
وليس عندنا بمصر من هذا الكتاب إلا صورة أو صورتان لنسخة واحدة
نسبت إلى إمام من أئمة القرن التاسع الهجرى ، هو الشيخ جلال الدين السيوطى ،
وذلك باسم كتاب « الفاشوش » وهو الاسم الذى اختاره « ابن ممتاى » لكتابه
فى القرن السادس الهجرى ، أى قبل السيوطى بثلاثة قرون ^(١) .

غير أن أستاذًا باحثًا تعرض قبلنا لنشر الكتاب ، وعثر منه على ثلاث نسخ :
منها النسخة التى زعم أنها لابن ممتاى فى القرن السادس ، ومنها النسخة التى زعم
أنها للسيوطى فى القرن التاسع ، ثم نسخة عنوانها : « الطراز المنقوش » ، فى حكم
السلطان قراقوش « وهى متأخرة زمنًا عن النسختين السابقتين ^(٢) .

والناظر فى هذه النسخ الثلاث يرى أنها تشترك فى قليل من النوادر ،
وتنفرد كل واحدة منها بأكثر النوادر ، وقد رأينا نحن أن ننقل هذه النسخ ،

(١) انظر نسختين مخطوطتين من كتاب السيوطى الأولى ضمن مجاميع برقم ١٩٤ ، والثانية
ضمن مجاميع برقم ٤١٦ ، وذلك بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٢) انظر مجلة Mission Archéologique Française au Caire VI. P. 447
بمكتبة دار الآثار العربية .

معتمدين في ذلك على الصور الموجودة بدار الكتب المصرية من جهة ، وعلى الجهد الذى بذله المستشرق « كازانوف » من جهة ثانية .

وأما الناحية التاريخية فقد عينا بها عناية خاصة . فكان علينا أولا أن نبحث عن شخصية الأمير بهاء الدين قراقوش ، وكان علينا ثانيا أن نترجم لابن مماتى صاحب كتاب الفاشوش . ثم كان علينا بعد ، أن نستعرض الظروف السياسية التى أحاطت بهذا الكتاب الذى جمع بينهما مستندين فى كل ذلك إلى أوثق المراجع التاريخية للعصر الذى وُجد فيه .

وأما الناحية الأدبية ، فالكتاب كما يرى القارئ مكتوب بلغة عامية أو شعبية . ولذا قصرنا البحث فى هذه الناحية على نوع الأدب الذى اشتمل عليه الكتاب ، وهذا النوع هو السخرية .

غير أنه لبيان نوع السخرية التى ظهرت فى كتاب الفاشوش ، لم نرُبدا من الكلام فى أنواع السخرية من حيث هى عامة ، ثم الكلام فى السخرية التى ظهرت فى الأدب العربى خاصة ، وانتقلنا من ذلك إلى الكلام عن السخرية فى أدب ابن مماتى بوجه أخص ، وهنا ينتهى البحث .

تلك إذن هى الخطة التى سلكناها فى هذا الكتاب ؛ وهذه طائفة من الأغراض التى من أجلها ننشر قصص هذا الكاتب المصرى القديم ابن مماتى . والله نسأل أن يسدّ هذا البحث فراغا ولو بسيطا فى تاريخ أدبنا المصرى ، فى القرون الوسطى . والقارئ بعد مرجوٌّ فى أن يغفو عن زلة يجدها ، أو نقص قد يقع عليه .

عبد اللطيف حمزة

(١)

قراقوش

لا تكاد مصادر التاريخ تذكر شيئا واضحا عن نشأة هذا الرجل ؛ إذ كل ما يُعرف عن نشأته أنه فتى رومى خصى ، ولد ببلاد آسيا الصغرى ، وكبر بها ، ثم فى ظروف لا حظ لها من وضوح ، اتصل هذا الفتى بضابط كبير ، هو أسد الدين شيركوه ، وكان هذا الضابط يعمل هو وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة ملك عظيم من آل زنكى ، هو عماد الدين المعروف بالشهيد . ثم مات هذا الملك ، وخلفه على حكم الشام ولده نور الدين محمود ، فقرب هذين الضابطين الأخوين ، وانتفع بهما انتفاعا عظيما .

وفى دمشق تسمى الفتى الخصى باسم بهاء الدين بن عبد الله الأسدى ؛ فأما تسميته بابن عبد الله ، فكناية عن أنه لا يُعرف له أب مسلم ؛ وأما وصفه بالأسدى ، فنسبة إلى أسد الدين شيركوه ، الذى لعله اشترى هذا الفتى بماله ، وتملكه ثم أعتقه ، أو لعله نسبته لنفسه لأن الفتى أسلم على يده ؛ والولاء كان فى العرب بطرق ، من أهمها هاتان الطريقتان ، وكثيرا مايكون بهما معا . ثم لما مات

(١) قراقوش معناه : النسر الأسود ، وهو لفظ تركى مكون من « قره » بمعنى أسود ،

و « قوش » بمعنى طائر .

أسد الدين ، واتصل الفتى بخدمة ابن أخيه صلاح الدين ، صار يدعى بهاء الدين ابن عبد الله الأسدي الناصري .

والظاهر أن رجال الجيش في دمشق كانوا قد أنسوا من هذا الفتى الرومي رشدًا ، ووجدوا في أخلاقه ميلا إلى الشدة والصلابة ، والقدرة على مواصلة العمل ، فأدثوه منهم ، ومنحوه الرتب العسكرية التي شجعتهم على خدمتهم ، وضربوا به المثل في الصبر والجلد والمثابرة ، فما لبث بهاء الدين قراقوش أن أصبح أميرا من أمراء الجيش ، الذي كان يرأسه أسد الدين شيركوه ، وهو الجيش الذي دخل مصر يوم دُعي نور الدين إلى التدخل في شئونها ، وإلى تهدئة الأحوال بها ، ثم إلى ضمها جملة إلى التاج الآتابكي ؛ فذهب إليها أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وبصحبتهم ذلك الفتى الرومي ، الذي شهد بعينه انهيار الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية ، وكان دعامة من الدعائم التي قامت عليها هذه الدولة الفتية الناشئة .



فراقوس في صرانة القصر الفاطمي

١١٦٨
وفي عام ٥٦٤ هجرية اضطرب رجال القصر الفاطمي، وعمهم الذعر والفرع،
وسعى بينهم من حذرهم عاقبة الوزارة الجديدة، وهي وزارة صلاح الدين، ووقفهم
على نيات هذا الرجل الخطير، وأقلها يومئذ تفكيره في إزالة الدعوة الفاطمية،
وإقامة الدعوة العباسية.

وإنه لأمرٌ خطير حقاً، أن تزول دولة وتقوم دولة، أو أن يسقط عرش
ويحل محله عرش، ومن أجله دُبِرت المؤامرات في داخل القصر وخارجه،
وأخذت هذه المؤامرات تظهر واحدة فواحدة، وكانت أولها مؤامرة داخل القصر
الفاطمي، دبرها خصي أسود اسمه «المؤمن»، أراد بها إسقاط صلاح الدين،
والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته. وكاد النجاح يكتب
لهذه المؤامرة لولا ذكاء القاضي الفاضل من ناحية، ولولا سيف الملك شمس الدولة
ابن أيوب، وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين، من ناحية ثانية.

في هذه الآونة فكر المؤمن ورجاله أن يملئوا أيديهم من ذخائر القصر
الفاطمي، التي توشك أن تضيع منهم إلى الأبد، وكان من أغراضهم في ذلك

أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند ، وتوفير المال اللازم لرجال المؤامرة .
عرف ذلك الوزير صلاح الدين ، فلم يُمض وقتا طويلا حتى هداه تفكيره
إلى خادمه الأمين ، وصديقه الغيور ، بهاء الدين قراقوش ، فجعله متولى القصر
الفاطمي ، يحرسه ويصون ذخائره ، فقام على حراسته بعين لم تمكن أحدا من أولئك
المتآمرين من أخذ شيء من ذخائره ، على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وإمكان
إخفائها .

ثم مات الخليفة الفاطمي ، وكان صلاح الدين قد انتهى من قطع اسمه من
الخطبة ، وذكر اسم الخليفة العباسي بدلا منه ، فَرِيعَ مَنْ بالقصر ، وتولاهم الخوف
والفرع ، وظهرت عليهم أمارات الوحشة والانكسار . فدعا السلطان الملك الناصر
صلاح الدين صديقه بهاء الدين قراقوش ، وزوده أوامر لمواجهة الحالة الجديدة ،
منها أن تزداد عنايته بالقصر ، فلا يخرج منه شيء أو يدخل فيه شيء إلا بإذنه ،
ومنها أن يضاعف الحيلة لأهل الخليفة وذوي قرابته ، وأن يخرجهم من القصر
إلى مكان عيَّنه له ، ترسل إليهم فيه كسوتهم وأزوادهم . فَمَقِلُوا إلى « دار
برجوان » ، وهي دار كبيرة واسعة بالحارة المسماة بهذا الاسم من حارات القاهرة .
ومن تلك الأوامر التي تلقاها الأمير بهاء الدين قراقوش ، أن يعزل الرجال
في القصر عن النساء ، لئلا يتناسلوا ويكثروا ، ويمتد ظلهم ، فيساعد ذلك على أن
يعيدوا الدولة الفاطمية . قال : « وأما الجوارى والعبيد ، فلك أيها الأمير أن تطلقهم ،
ولك أن توزعهم ، ولك أن تطلق البيع فيمن بقي منهم بعد ذلك كله ، حتى
لا يزدحم بهم القصر » ، بذلك ختم السلطان الملك الناصر حديثه الذي ألقاه
على صديقه ، ثم تركه يعود إلى القصر ، ليتولى بنفسه تنفيذ الأمر .

فعاد الأمير إلى القصر ، وفتح عينيه يومئذ على كنوز ، يضيق بوصفها مؤلف صغير كهذا الذي تقرأه ، فمن ملابس وجواهر ، إلى قلائد ودرر ، إلى ياقوت وزمرد ، إلى مصوغات ذهبية وأوان فضية ، ومنسوجات مغربية ، و « صوان » صينية ، وأخرى منقوشة بالميناء ، ومن قطع ثمينة من الخزف ، إلى تماثيل عظيمة من البلور ، على هيئة الوحش أو الطير ، إلى حلل وثياب ، إلى طيب وطرائف ، إلى عقود من الزبرجد والجوهر ، الذي لا نظير له في العالم كله ، إلى تحف مصنوعة من خشب الصندل والعود والآبنوس ، إلى بسط خيطة بالذهب والفضة ، إلى ستائر وأغطية من الديباج ، قد نسجت فيها الرسوم الفاخرة ، والصور الرائعة ، إلى كئوس من حجر غال يقال له « حجر اليصب » ، قالوا إن من خواصه الوقاية من السم ، وكانت هذه الكئوس تصنع للأمراء والملوك ، لتوضع فيها الأشربة ، فيتغير لونها إن كان بها شيء من السم . ذلك كله عدا الأسلحة والسروج ، والخيم والبنود .

وأما العرش الفاطمي نفسه ، فكان مرصعا بالدر والجوهر ، وكانت عتباته مغطاة بالذهب الخالص .

لقد وضعت ياقرقوش يدك على كنوز ليس لها نظير في العالم أجمع ، فاحرص على هذه النفائس كلها ، وضاعف عنايتك بها ، حتى تصير إلى صاحب الحق الشرعي فيها ، وهو مولاك السلطان صلاح الدين .

أما خزانة الكتب ، وقد ذهب المؤرخون أيضا إلى أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام أعظم منها ، فقد كانت بالقصر مرتبة مفهرسة ، فليل يوما للأمير بهاء الدين قراقوش : « إن هذه الكتب قد عاث فيها العث ، ولا بد من تهويتها

وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة . وكان قراقوش جنديا لا خبرة له بالكتب ، ولادراية له بأسفار الأدب ، فأخرجها ، ثم ظهر أن هذا الطلب إنما كان حيلة مدبرة من تجار الكتب ، يريدون بها تفريقها ، وخلط أنواعها ، فتم ذلك ، واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم ، وكتب الشرع بكتب المنطق ، وكتب الطب بكتب الهندسة ، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة .

وكان في خزانة الكتب مؤلفات يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءا مجلدا ، إذا فقد منها جزء لا يُخْلَف أبدا ، ففرَّق الدالّون هذه الأجزاء ، لتقل قيمة الكتب ، وتباع بأخس الأثمان ، هذا مع أنهم كانوا يعرفون مواضع أجزائها ، ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها .

وكان الأمير قد استأذن مولاه صلاح الدين في بيع هذه الكتب الهائلة ، فأذن له السلطان في بيعها ، ولم يظهر حرصه عليها ، لما زعم يومئذ من اشتغال أكثرها على كتب في عقائد الشيعة الفاسدة ، وآرائهم الدينية المتطرفة ، وهو إنما أتى إلى مصر لأغراض من أهمها محاربة هذه العقائد والآراء ، حتى لا يبقى في مصر من يميل إليها ، أو يأبى لها .

فعمل الأمير بأمر مولاه في الكتب ، كما عمل بأمره في غير الكتب ، وجعل لبيعها في القصر يومين من كل أسبوع ، واستمر البيع فيها وفي ذخائر القصر أكثر من عشر سنين .

وكذلك نجح الأمير قراقوش في القيام بمهمته ، فحافظ كل المحافظة على نفائس القصر وذاخره ، وبذل عنايته في صونها ، وكان أميناً كل الأمانة في بيعها ، وجمع المال الحاصل من ثمنها ، وإذا صح أنه غلب على أمره في شيء

من ذلك كله ، فهو « خزانة الكتب » ، وله في ذلك عذران واضحان : أولهما جهله بقيمة هذه الكتب ، وثانيهما خوف صلاح الدين من هذه المكتبة ، وإساءته الظن بها إساءة جعلته لا يهمه من أمرها أكثر من جمع المال الحاصل من بيعها .

فاحتال في اقتناء هذه المكتبة ، وفي انتهاز هذه الفرصة النادرة ، كثيرون من التجار وأهل الأدب ، وكان نصيب القاضي الفاضل منها نصيب الأسد ، فقيل إنه ظفر يومئذ بألوف من الكتب ، أسس بها مدرسة نفحة سماها باسمه ، وخدم بها مذهب السنة ، الذي انهارت بسببه دولة ، وقامت له دولة ، وأتى صلاح الدين كما قلنا لنشره ، والقضاء على جميع المذاهب التي كانت تناهضه .



قراقوش منشي ، الأعمال الحربية

كان بين الحكومتين الفاطمية والأيوبية فروق من وجوه ، يمكن أن ترد كلها إلى سبب واحد ، هو أن حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية ، أما حكومة السلطان صلاح الدين فكانت حكومة عسكرية ، عنت الأولى منهما بنظام الدواوين ، واستكثرت فيها من الكتاب والموظفين ، على حين اكتفت الثانية بعدد يسير من هذه الدواوين ، ومن الموظفين ؛ واستأثرت الحرب بجزء عظيم من عناية الدولة الأيوبية ، وذلك أن مهمة هذه الدولة انحصرت يومئذ في شيئين هما : التغلب على مذهب الشيعة في داخل مصر ، ثم إحراز النصر النهائي على الفرنج وإجلالهم عن القدس .

من أجل ذلك احتاج السلطان صلاح الدين إلى منشآت حربية ومدنية ، كان من أهمها إذ ذاك إقامة الجسور ، وتطهير الترع ، وتشديد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد ، لتقيها شر الغارات التي قد تأتي إليها من جانب الفرنج تارة ، والشيعة المنبثين في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي تارة أخرى .

ومن لهذه المشروعات الحربية العظيمة غير الأمير بهاء الدين قراقوش ، يبذل

ففيها جهده ، وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر وبالجِد ، وعزيمة يوشك ألا يكون لها حدّ ، ثم مواهب هندسية سرعان ما كشف عنها صلاح الدين ، وأفاد منها في حروبه فائدة ليس إلى إنكارها من سبيل !

ولعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل ؛ بناها على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم ، وتشرف منها على القاهرة كلها . وتصلح بذلك أن تكون وكرًا للنسر الإسلامي العظيم صلاح الدين ، يقيم بها بعض أيامه ، ويدير منها حركة الحرب ، التي زحزح بها أعداءه من القدس . ثم لما مات السلطان صلاح الدين سكن القلعة من بعده ابنه العزيز ، ثم في عهد الملك الكامل من ملوك بني أيوب ، تم بناء هذه القلعة العظيمة ، واتخذت منذ ذلك اليوم مقرا للحكومة ، واستمر الحال على ذلك إلى زمن المغفور له محمد علي باشا . ثم لم يكن إلا في عهد إسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة إلى دور أخرى وسط مدينة القاهرة .

غير أنه ما كاد الأمير قراقوش يفرغ من بناء قلعة الجبل ، حتى اشتغل في بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقس ، وهي برج كبير بناه الأمير على النيل . وبنى بالقرب منه أبراجا أخرى على النمط الفرنجي لا النمط البيزنطي ، وسبب ذلك فيما يظهر ، أن صلاح الدين اختلط في أثناء الحروب الصليبية بالفرنج المقيمين بالشرق في أثناء هذه الحروب ، وعرف كيف يبنون قلاعهم وحصونهم ، ووازن بينها وبين حصون الفاطميين وقلاعهم ، فظهر له أن حصون الفرنج أصلح من الوجهة الحربية . ثم ما كاد الأمير يستريح أيضا من بناء هذه الأبراج والحصون ، حتى شغل نفسه بمشروع آخر ، هو إقامة سور عظيم على حافة الصحراء الغربية ، قطع له الحجارة من الأهرام الصغيرة ، وبناه تجاه الخيزة على مسافة بعيدة منها .

ولكن أخسبت أنك فرغت من متاعبك أيها الأمير؟ أم حسبت أنه قد آن لك أن تخلد إلى الراحة من هذا العناء الكبير؟ أو أنك تستطيع الآن أن تنعم بفترة يهدأ فيها جسمك من هذه الحركة التي لا تعرف السكون؟ إن لك أكثر من عامين تصل فيهما ليلك بنهارك في القيام بنصيبك من عبء الحرب، فقد بدأت هذا العمل منذ عام ٥٦٧ هـ، وأنت الآن في عام ٥٦٩ هـ، والسلطان العظيم يأمرك أن تقوم له بعمل آخر، ربما يرى أن له من الأهمية الحربية ما يربو على الأعمال السابقة كلها. إنه يأمرك أيها الأمير أن تقيم له سورا يحيط بمصر والقاهرة، ويصل كل هذه القلاع بعضها ببعض، فاعمل أيها الأمير في هذا السور، وقدَّله الحجارة من المقطم والأهرام، واحشد للبناء من شئت من أسرى الفرنج، وما أكثر ما جلب لك مولاك من هؤلاء الأسرى، في الحروب الكثيرة التي تدور الآن بينه وبين أولئك القوم!

أقبل الأمير قراقوش على بناء السور، وبنى فيه جامعا، وحفر في القلعة بئرا. قالوا: «وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية، يدور البقر من أعلاها، وينقل الماء من وسطها، وتدور أبقار أخرى في وسطها، فينقل الماء من أسفلها، وجميع ذلك حجر منحوت، ليس فيه بناء. وقيل إن أرض هذه البئر مسامطة لأرض بركة الفيل، وأن ماءها كان عذبا في أول الأمر، ثم أراد قراقوش الزيادة في ماءها، فوسعها، فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها».

وكان هذا السور الذي بناه قراقوش هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهده، أما الأول فكان قد بناه القائد الرومي جوهر الصقلي؛ وأما الثاني فكان قد بناه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالي الفاطمي. وكان هذان السوران

الأولان قد بنيا من اللبن ؛ أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة ووقف عند قلعة المقس ، لم يستطع أن يصلها بمصر .

عند ذلك كتب القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة طويلة ، منها قوله : « والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رؤاؤه ، فما عقيلة كان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليتحلى بغير منطقته نضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وأمنوا من يد تتخطف ، ومجرم يقدم ولا يتوقف . . . » . فلما قرأ السلطان الرسالة سرَّ بها وبخادمه بهاء الدين قراقوش ، وعلم أن الله تعالى يريد بدولته خيرا ، إذ قيض لها مثله ومثل وزيره القاضي الفاضل .

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة يمثل هذه الأعمال الحربية الجليلة . وكان السلطان كلما احتاج إلى عمارة قلعة ، أو تجديد حصن ، أو تقوية جسر ، أو إقامة سور ، أو بناء برج ، عهد إليه في هذا العمل ، فقام به على خير طريقة .

ولعل آخر ما قام به من ذلك عمارته لسور عكاء عام ٥٨٥ هـ ، وذلك في أثناء المحنة التي مرت به وبالمسلمين ، وهي المحنة التي نريد أن نستعرضها هنا بالقدر الذي يتصل بشخص الأمير .



قراقوش الجندى فى مصر عكا

كان قراقوش جنديا له شخصيته البارزة فى الجيش ، غير أنه كان ذا ميول
حربية هندسية ، عرفها السلطان صلاح الدين ، فكان يؤثر أن يتركه لهذه الأعمال
التي ذكرنا لك طرفا منها ، ويذهب هو إلى القتال ومعه قواده وأبطاله ، ممن كانوا
يحسنون الكر والفر فى الميدان . من أجل ذلك لم نسمع عن بهاء الدين قراقوش
أنه اشترك فى حرب للسلطان ، إلا حين كان يدعوه السلطان إلى إقامة الأسوار
ونحوها ؛ فإذ ذاك لا يجد الأمير بدا من الذهاب معه .

ومضت السنون ، وانتصر السلطان صلاح الدين على الفرنج ، واستولى منهم
على بيت المقدس ، ثم تقدم فى فتوحه ، حتى يسّر الله له فتح حصن من أكبر
حصون الفرنج ، وهو حصن عكا ، فملك السلطان هذا الحصن المنيع ، ولكن بعد
أن دفع فيه الثمن غاليا ، من المال والأنفس ، واستشهد فى ذلك اليوم أخ للفقير
عيسى الهيكارى ، وأتى الناس يعزونه ، فأنكر عليهم ذلك وقال : « هذا يوم
الهناء ، لا يوم الغزاء ! » .

وكان سور المدينة قد تهدم من شدة القتال ، فرأى السلطان أن يترك المدينة

والحصن للأمير قراقوش ، ويذهب هو لامتلاك الحصون الأخرى ، قبل أن يجمع الفرنج شملهم ، أو يأتهم المدد من ملوكهم فيما وراء البحر . فبقى الأمير في هذه المدينة ، وبقيت معه حامية ليست بالكبيرة ، وسهر في إقامة ماتهدم من السور ، وعكف على عمله هذا بهمة لاتعرف الملل ، وعزيمة لايحقتها خور ، وهو واثق من أن الله الذي وهب للمسلمين النصر حتى ملكوا هذا الحصن ، لابد أن ينصرهم ، ويساعدهم على قهر الإفرنج ، حتى لا يجدوا بدا من الجلاء عن الشرق .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ؛ حدث أن الفرنج بعد انهزامهم اجتمعوا في حصن آخر من حصونهم ، واتفقوا على أن يذهبوا بجمعهم إلى عكا ، حيث يظلون محاصرين لهذه المدينة ، أو يأتهم المدد الذي طلبوه من بلادهم . وكان قصد الفرنج من ذلك أن يشغلوا بهذا الحصار بال المسلمين ، فقد أصبح بينهم وبين أن يطردوا الفرنج من البلاد نهائيا ، أن يأخذ المسلمون منهم بضعة حصون كانت لهم على الساحل .

فصُرب الحصار على عكا عامين ، ذاق فيهما الأمير والمسلمون معه الأمرين ، بل ذاقوا هنالك أقسى ما عرفته الحنة الصليبية من ألم ، وتحملوا فيهما أشق ما مر بها من جهد ونصب ، حتى لقد نفدت الأقوات من المدينة ، وكان على المسلمين أن يمددوا إخوانهم فيها بالطعام وبالميرة ، ولكن الفرنج كانوا كثيرا ما يحولون بينهم وبين هذا العمل ، الذي تتوقف عليه حياة المسلمين في هذه المدينة البأسية . فانتشر فيهم الجوع ، وفقر الوباء فاه ، ليبتلع الجند الذين أصبحوا ولا قدرة لهم على مشقة الحرب ، والعدو مع ذلك يطرهم وابلا من عذابه خارج الحصن .

كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصبر ويتجلد ، وكلما فكر جنده

في التسليم للعدو منهم وأملهم وشد عزائمهم ، وما يزال بهم حتى يرجعوا عن هذا العزم ، ويتقدموا شجعانا كعادتهم لإخافة هذا الخصم .
ومع ذلك شاءت الأقدار أن تخذل هذا الأمير الصابر ، في الدفاع عن نفسه وشرفه وجنده في هذه المحنة القاسية . فأتى المدد إلى الفرنج من ملوكهم فيما وراء البحر ، ووقف ملوك الصليبيين صفا واحدا أمام جيش صلاح الدين ، فوهن المسلمون يومئذ ، ودخل الملوك المسيحيون عكاء ، وانهاؤا على أهل المدينة نهبا وذبحا وأسرا ، وكان الأمير نفسه ممن أسروا ، وبقي في الأسر حتى أفرج عنه حين عقد الصلح . وكان يوم الإفراج عنه يوم سرور عظيم ؛ إذ فرح به السلطان الفرح كله ، لما كان له عليه وعلى الإسلام كله من الحقوق ، فبقى الأمير إلى جانب السلطان ، لم يفارقه حتى فارق السلطان هذه الدنيا .



قراقوش بحمي عرش العزيز

مات السلطان صلاح الدين ، وتوزع الملك أولاده من بعده ؛ فكانت مصر من نصيب ولده « العزيز عثمان » ، وكانت دمشق وما حولها من نصيب ولده « الأفضل » ، وكانت حلب وما يليها ملكا لابنه « الظاهر » ، وكانت بلاد الجزيرة والرُّها وغيرها من البلاد الشرقية من نصيب عمهم الملك العادل . والعجيب أن هذه الدولة الإسلامية الكبيرة التي كانت كلها في قبضة السلطان العظيم صلاح الدين ، انقسمت على نفسها ، ودبت الوحشة بين ملوكها ، ولولا ما كان يتهددهم من خطر الصليبيين ، وهجومهم عليهم المرة بعد المرة ، مما كان يؤلف بين قلوبهم ، ويجعلهم قوة واحدة ويذا واحدة لدرء هذا الخطر ، لانهارت دولتهم ، وذهبت جهود أبيهم صلاح الدين مع الرياح .

وكان من سوء حظ « الأفضل » أن وجد إلى جانبه وزير نكسِدُّ على ماشتهربه من الفضل والأدب وسعة العلم ؛ ذلك الوزير هو ضياء الدين بن الأثير الجزري ، صاحب كتاب « المثل السائر » ، وكان هذا الوزير الأديب رجلا فائق الرأي ، بغيضا إلى الناس ، حتى قال فيه الشاعر :

متى أرى وزيركم وما له من وذر

يقبله الله فذا أوان قلع الجزر!

وبسبب هذا الوزير حدث خلاف كبير بين الأفضل والعزیز ، وضرى الشر بينهما ، وفر كبار الأمراء فى جيش الأفضل من دمشق إلى مصر ، فرحب العزیز بهم ، وعول فى أموره عليهم . وفرغ الأفضل فى دمشق للذة واللهمو ، وترك الشأن فيها للوزير ، فأتى يوما إلى العزیز من أخبره بخبر الأفضل كله ، وبأن الجزرى غلب فى دمشق على أمره ، وأنه أفسد أحوال الدولة إفسادا لاتصلح بعده ، ولم يكفه ذلك حتى حمل الأفضل على مقاطعة إخوته ، وحسن له طرد القدماء من أمراء والده ، وزين له الدخول فى حرب مع أخيه العزیز ، فأصبح على العزیز إذن أن يدرك البلاد ، وإلا حدث فيها من الاختلال ما لا يمكن دفعه .

وذهب العزیز بجيشه إلى دمشق ، وأناب عنه الأمير بهاء الدين قراقوش فى حكم مصر . ولم تكن هذه أول مرة ناب فيها الأمير بهاء الدين ، فقد سبق أن قام بهذه النيابة أيضا فى حياة صلاح الدين ، ومعنى ذلك أنه كان أهلا لهذه الثقة منذ نشأته ، فلم يكن غريبا أن يثق به العزیز ، وأن يترك له البلاد أحوج ما تكون إلى وجوده بشخصه ، فى وقت نظر فيه العقلاء عن كشب ، فإذا نار تحت رماد ملتهب ، وإذا جيش العزیز على أبواب ثورة تجلس نفسها فى صدور الجند ، إلى أن يحين الوقت الذى ينفجر فيه انفجارا لا يؤمن شره .

ولم يشعر الملك الأفضل يوما ما إلا وجند العزیز محيطة به ، فلما جمع أصحابه أشار عليه الجزرى أن يعتصم بعمه العادل ، فأتى العادل يومئذ إلى دمشق وشفع للأفضل عند العزیز ، فاستحى العزیز من عمه ، وصالح أخاه ، وعاد إلى مصر .

ومضى على هذه الحادثة وقت غير طويل ، ثم عاد الخلاف بينهما من جديد ، وكان من أسبابه هذه المرة ظهور الفتنة التي أشرنا إليها ، فقد حدث نزاع عظيم بين فرقتين عظيمتين في جيش العزيز ، هما فرقة الصلاحية (الذين هم ممالك أبيه صلاح الدين) ، وفرقة الأسدية (الذين هم ممالك عمه أسد الدين) ، واتهم العزيز يومئذ بأنه كان يقدم الصلاحية على الأسدية ، فنفر هؤلاء من الملك العزيز ، وانتهز العادل هذه الفرصة لتوسيع الخلاف بين الفريقين المتنازعين ، كما أخذ ينتهز الفرصة من قبل للوقعة بين الملكين الأخوين ؛ وكان خليقا به أن يكون بين هذين الأخوين كما قال القاضي الفاضل يوما للملك الأفضل : « فإني لأدخل بينكما إلا كالنسيم بين الأغصان ، يعطف بعضها على بعض ، أو المروء بين الأخفان ، يرد إليها ما فقدته من النور أو الغمض » ؛ ولكن الطمع والشره يفسدان على المرء حياته دائما ، ويحولان بينه وبين العمل الذي يتفق ومكانته ، فقد كان العادل يطمع يومئذ في ملك مصر ودمشق ، يرى نفسه أحق بهما من هذين الملكين الشابين من أولاد أخيه ، ويعلم أن أحدهما لن يصفو له ، حتى يفسد الجو بين الأخوين . وكان الأفضل ملكا طيبا لين القلب ، وكان به غفلة لا تليق بالملك ، وكان العزيز على ذكائه وشجاعته يحسن الظن بعمه أول الأمر ، حتى أخذ عليه هذا السلوك . وأما العادل فكان ملكا عظيم الدهاء بطبعه ، ثم زاده اختلاطه بملك الإنجليز « ريتشارد » في الحروب الصليبية مكررا على مكر ؛ فأعمل هذا المكر كله في توسيع الخلاف القائم بين الأفضل والعزيز ، ونجحت حيلُهُ في التفرقة بينهما ، حتى عزم العزيز مرة أخرى على قصد دمشق ، وكان قبل خروجه إليها قد استمال إليه أخاه الظاهر بحلب ، فلحق به الظاهر هناك ، فلما رأى العادل أنه لا قبل له ولا

للأفضل بهما ، عمد إلى حيلة من حيله لإضعاف الجيش ، فكتب العزيز سرا يخوفه من الأسدية ، وكتب الأسدية سرا يخوفهم من العزيز ، وكان زعيم الأسدية إذ ذاك رجلا يقال له حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وكان هذا الخيـث واليا على القدس من قبل العزيز ، ثم عزله العزيز وولى مكانه غيره ، فأسرّها في نفسه ونوى الغدر بصاحبه .

ووصلت كتب العادل إلى الأسدية ، وبيّت الجميع سوء النية ، فاتفقوا على أن يكتبوا لإخوانهم في القاهرة لكي يحولوا بين العزيز ودخول مصر عند عودته إليها ، وبذلك يصبح العزيز نفسه بين نارين : فاما أن يسلم نفسه للأسدية ، وإما أن يلوذ بعمه العادل . كل ذلك والعزيز مقيم في معسكره بقرب دمشق ، يرتب الجند ، ويشرف على نظام الجيش ؛ وإذا بأبي الهيجاء السمين ينسحب فجأة من الميدان ، ويقود وراءه جندا كاملي العدد والعدة ، ومن جند هذا الرجل إذ ذاك كان يتألف معظم الجيش ، ففتّ ذلك في عضد العزيز ، وخضد من شوكته وأخذ من عزمه ، وفل من غربه ، حتى اضطر في صباح اليوم التالي أن يفكر في النجاة بنفسه ، والعودة إلى مقر حكمه .

غير أنه حينما وصلت كتب الأسدية إلى إخوانهم المقيمين بمصر مع بهاء الدين قراقوش ، أبت على هذا الأمير الأسدي نفسه أن يتغير على سيده ، وقام في الأسدية الذين كانوا معه يخوفهم ويهددهم ، ويحذرهم عاقبة غدرهم وخيانتهم ، وما زال بهم حتى أخذ نشاطهم ، وأطفأ جذوتهم ، وأبطل حيلتهم ، وأحاط بهم ، وفوّت عليهم قصدهم وقصد زعمائهم في مصر وغير مصر ، وبذلك حبطت المؤامرة التي دبرت ضد الملك العزيز ، بل ما كاد العزيز نفسه يصل إلى القاهرة حتى كان قراقوش

قد انتهى من عمله ، ومهد له طريق الدخول ، فدخل العزيز مصر ، واستقبله أهلها
بسرور عظيم ، ثم وصله الأمير قراقوش بخبر هذه المكيدة ، التي دبرت له
في غيبته ، وقصد بها إلى خيانتته ، فشكر له السلطان هذا الصنيع ، ثم تقدم إلى
السلطان شاعر مصرى عظيم ، هو القاضي السعيد بن سناء الملك ، فألقى بين
يديه قصيدة مطلعها :

مَنْ فَرَّ مِنْكَ فَلَا يُلَامُ وطريد • بأسك لا ينام
ومنها قوله متهمًا بالأسدية ، بعد إذ فشلوا في المؤامرة :

وهم الأسود فما لهم طاروا كما طار النعام ؟
ومضوا وما سُئلَ الحسا مُ فكيف لو سُئلَ الحسام ؟
لا ينفعون ولن يضر روا إن مضوا وإذا أقاموا
فلئن عفوت فإنما يعفو عن الذنب الكرام
وإن انتقمْتَ فإنَّ أيَّ سَرٍّ ما استحقوا الانتقام
وهو به سكرى وليس سوى الهموم لهم مُدام
ستسوقهم بيد الزمَّان ن في أناملِك الزمام

وإذن فكما أخلص الأمير قراقوش للسلطان صلاح الدين ، أخلص
الإخلاص كله لابنه العزيز ، إذ استنابه العزيز عنه في حكم مصر وهو غائب عنها ،
خافض الأمير له على العرش ، محافظة أصبحت له بها يد جديدة في عنق هذه الدولة
التي شارك في بنائها ، وإقامة صرحها ، فكان من الحق عليها أن تحفظ له
هذا الجميل !

تلك هي الكلمة التي كتبها التاريخ في صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش ،
وذلك بعض ما تجمّع للتاريخ من الدلائل القوية على عظمة الرجل الخلقية والحربية ؛
فلينظر التاريخ في سيرة هذا الأمير مرة أخرى ، لعل فيها دلائل على صدقه
وعظمة نفسه غير ما ذكرنا .



قراقوش الوصى على عرش المنصور

مات العزيز وأوصى بالملك من بعده لابنه المنصور ، وكان هذا الصبي في التاسعة من عمره ، فأوصى أبوه بأن يكون مدبر أمره بهاء الدين قراقوش ، فأجلس المنصور على السرير غداة اليوم التالى لموت أبيه ، ووقف إلى جانبه الأمير بهاء الدين ، يلى حكمه ، ويحوظ ملكه ، ويسوس رعيته ، ويرعى بذلك عهد العزيز ؛ وكان قراقوش قد أسنَّ إذ ذاك ، وإن لم تبلغ به السن حدا يضر بعقله أو بجسمه ، فلم يصدر منه تصرف يدل على خَرَف ، ولا أتى عملا ينبىء عن خَبَل ، وكادت الأمور إذ ذاك تسير سيرا حسنا ، لولا أطماع الملكين الأفضل والعاقل ، أو على الأصح أطماع العاقل وحده .

والغريب أن الفتنة التى حدثت أيام العزيز توشك أن تكون هى الفتنة التى حدثت فى أيام المنصور ، وأن الظروف التى أحاطت بالثانى ، تشبه فى أكثرها الظروف التى أحاطت بالأول . فقد انقسم الصلاحية والأسدية على أنفسهم من جديد ، وتنازعوا بينهم فيمن يكون الوصى على الصبي ، ورأوا أن يذهبوا إلى القاضى الفاضل لأخذ رأيه ، فامتنع الفاضل عن إبداء رأيه ، بحجة أنه اعتزل

العمل ولزم بيته ، فتركوه وعادوا إلى تنازعهم . فقال الصلاحية : « نعمل بوصية العزيز ونخطب لابنه المنصور ، ونحلف على طاعته ، ونرضى بالأمير قراقوش وصيا عليه ، وأميرا علينا » . وقال الأسدية : « بل نفكر في وصي يكون من كبار بني أيوب ، ولولا أن العادل مشغول بحربه ، لدعونا له كي يكون وصيا ، فليس أقرب إلينا الآن من الأفضل ، فلنبعث إليه في الحجى ، ولنحدد للوصاية أجلا لا يزيد على سبع سنين ، بعدها يعود إلى ملكه ، ويترك للمنصور عرشه » .

وكتب الأسدية بالفعل إلى الأفضل يدعونه إلى الحجى ، وكتب الصلاحية إلى إخوانهم بدمشق يقولون لهم : « قد اتفقت الأسدية على الأفضل ، وإن ملك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا ، فامنعوا الأفضل من الحجى إلينا » .

غير أنه حدث لسوء حظ الصلاحية ، أن كتابهم الذي بعثوا به إلى إخوانهم وقع خطأ في يد الأفضل ، فأخذ الأفضل الكتاب ، وذهب ومعه الرسول إلى مصر وهناك خرج الأسدية والصلاحية للقاءه ، ورأى الصلاحية رسولهم معه في ركابه ، فقالوا : ما أسرع ما رجعت ! فأخبرهم الخبر ، فسقط في أيديهم ، واستأذن زعمائهم في السفر إلى القدس ، فأذن لهم ، فذهبوا إلى هناك ، وحمدوا الله على نجاتهم .

أما قراقوش فحين رأى الأفضل عمل برأى الجماعة ، ونزل له يومئذ عن الوصاية ، وقال للأفضل : هذا ابن أخيك ، وما يكون لي أن ألي أمره في وجودك ، ولك على الطاعة مادمت له حافظا ، وأنا أحلف على ذلك .

وبلغت العادل هذه الأخبار ، فترك حصاره للمدينة التي كان يحاصرها ، ثم عاد مسرعا إلى دمشق ، وكان الأفضل غائبا عنها بمصر ، فدخلها وتحصن بها ، فأشار الأسدية على الأفضل بالعودة إليها ، فعزم الأفضل على ذلك ، وكتب أخاه

الملك الظاهر ليساعده في ذلك ، فوعده الظاهر بالمساعدة .
وكان أهل دمشق يحبون الأفضل ، لأدبه ولينه وحسن خلقه ، على حين يبغضون
العاذل ، نخبته ودهائه وسوء حكمه ، وعند ما علموا بعودة الأفضل إلى دمشق ،
أخذوا يضايقون بها عمه العادل مضايقة أفست عليه كل قصد ، فخطموا بعض
أسوار المدينة وأبوابها ، وقطعوا أشجارها ومياها . وممر العادل نفسه بباب منها ،
فرموا على رأسه زيتا بعد غليه ، فأخطأه الزيت ، ووقع على رأس فرسه ، فمات
لساعته . كل ذلك والعاذل صابر على لأوائه ، مسيطر على أعصابه ، لا ينطق
بكلمة واحدة ! حتى بدا له أخيرا أن يلقي سحره ، وينفث سمّه بين الأخوين
المتضافرين ، ففعل ، وفرّق بسحره بينهما ، بعث إلى الملك الظاهر يقول له : « أنا أسلم
إليك دمشق على أن تكون لك لا للأفضل » ، فأنخدع الظاهر بقوله ، وطمع في
ملك غيره ، وبعث إلى أخيه الأفضل يقول له : « أنت صاحب دمشق ، وقد بلغني
أنك تدعها لي ، وتؤثرني بها » ، فرد عليه الأفضل يقول : « دمشق لي ، وإنما
أخذت مني غصبا ، ولا أعطيها أحدا أبدا » . فخاصم الظاهر أخاه ، وتم للعاذل
ما نواه ، وأوقع بين الأخوين الذين عاد كل منهما إلى بلده ، وفاز العادل بغنمه .
وهنا حدثت العادل نفسه بالإغارة على مصر ، فلما علم الأفضل ما عزم عليه
عمّه ، جمع الحاضرين من أمرائه في ذلك الوقت وأظهر لهم الخوف من عمه ، وكان
الأمير بهاء الدين قراقوش حاضرا ، فنهض وقال : « لا تخف يا مولاي ، فنحن جنودك ،
وجند أبيك من قبلك ، مرنى أحفظ لك قلعة الجبل ، ثم مرنى أحفر لك ما بقي
من سور البلد ، ثم مرنى أتعلم الحفر ، حتى أصل إلى الصخر ، وأن أجعل التراب
على حافة الحفر ، فيبدو كأنه حائط آخر ، ودعى أفعل ذلك فيما بين البحر وقلعة

لمقس . وبذلك لا يبقى لمصر طريق إلا من بابها الذي يصعب أن يفتحته العدو .
 فسرّ الأفضل من هذا الرأي ، وشكر للأمير هذا الصنيع ، وكاد النصر يتم
 للأفضل لولا قلة المال في يده من جهة ، ولولا تفكيره إذ ذاك في رأى سيّ عزم
 على العمل به من جهة ثانية ؛ أما المال فلم يكف ما معه منه لسد أعطيات الجند ؛
 وأما الرأى السيّ الذى فكر فيه ، فهو إحراق مدينة بلبيس ، وقد ظن أن النار
 تحول بينه وبين الملك العادل ، فلا يستطيع الوصول إليه ، فثارت الرعية ، وثار معها
 الجند ، وكان من حسن حظ العادل أنه أتى مصر فى هذه الآونة الدقيقة ، فتم له
 النصر ، وفر الأفضل من وجهه إلى بعض مدن الشرق ، واستقر بالعادل المقام ،
 ونصب نفسه فى أول الأمر وصيا على الغلام ، ثم لم يلبث بعد أن أحضر جماعة
 من الأمراء والفقهاء ، وحدثهم حديثا طويلا جاء فيه :

« إنه قبيح بى أن أكون أثا بك صبي (وصيا عليه) مع الشيخوخة
 والتقدم ، والمُلك ليس بالإرث ، وإنما هو لمن غلب ، وأنه كان يجب أن أكون
 بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى ورعاية لحقه ،
 فلما كان من الخلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الملك من يدي ويد أولاد أخى ،
 فسست الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه ،
 فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسى على وصاية هذا الصبي حتى يبلغ أشده ،
 فرأيت العصبية باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك
 الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبوا إقامة إنسان آخر ، ولا يعلم أحد
 ما تكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبي إلى الكتّاب ، وأقيم له من
 يؤدبه ويعلمه ؛ فإذا تأهل وبلغ أشده ، نظرت فى أمره ، وقت بمصالحه »

فوافق الفقهاء والأمراء على هذا الرأي ، وخلعوا المنصور وحلفوا للعادل وخطبوا له .
هكذا يجور القوى على الضعيف ، ويظهر الباطل على الحق ، ويغرق الأمير
بهاء الدين قراقوش في بحر من الأفكار البعيدة ، والذكريات القديمة ، فيعيد إلى
ذهنه عهد السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ثم يذكر من بعده عهد ولده العزيز ،
ثم يستعيد كلمة قالها السلطان صلاح الدين يوما لأخيه الملك العادل : « أنا نجيب ،
فما يكون لي أولاد نجباء ؛ وأنت غير نجيب ، فسيكون لك أولاد نجباء » ، فيعجب
بهاء الدين قراقوش لهذه الكلمة التي فاه بها السلطان صلاح الدين ، ويقول في
نفسه : « ما كان أفطنَ هذا الرجل العظيم ! فقد أدرك بثاقب نظره ما خبأه القدر
لأولاده ، من أنهم لا يملكون بلاده ، وإنما يملكها منهم أولاد أخيه العادل » .
والآن أيها الأمير بهاء الدين ، وقد كبرت وضعفت وتهدمت ، وأحسست
كأنك تقف برجلك على حافة القبر ، فما أنت فاعل بهذه الفترة ؟ إنك لن تستطيع
بعد اليوم أكثر من أن تلزم بيتك ، وتحبس نفسك ، وتنتظر أجلك الذي لن
يمهلك شهورا بعد هذه الحادثة .



قراقوش وابن مماتي

تلك صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، وتلك أعماله المجيدة ، وبلاؤه الحسن في خدمة الدولة الأيوبية ، لم نذكرها كلها ، وإنما ألمنا بالهم منها من جهة ، وبما اتفق عليه المؤرخون جميعا من جهة ثانية ، فلم نذكر أنه اشترك في فتوح السلطان صلاح الدين بأوسع من هذا المدى الذي وصفنا ، ولم نذكر أن السلطان العظيم كان يعتمد عليه بين حين وحين في إخماد الثورات التي كانت تشتعل في القاهرة نفسها ، دفاعا عن الدولة الفاطمية التي انتهت أمرها ، وشاء القدر أن تقضى على يديه نجيبا .

ولكن شاء القدر أيضا أن يُسلط على هذا القبس العظيم دخانٌ كثيف ، يحول بينه وبين الناظرين إليه ، فلا يصل إليهم حتى يؤذي العين منظره ، ولا يسر النفس أن تدنو منه ، وهكذا الشمس المشرقة إذا اصطلحت على إخفاؤها السحب ، بل هكذا الحق الأبلج حين تكتنفه الريب ، بل هكذا الزهرة الطيبة في طريق كله أقدار ودمن . ! .

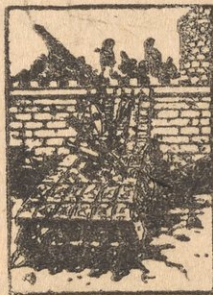
ذلك أن أديبا جليل الخطر ، هو ابن مماتي ، عُرف أنه كتب في هذا الأمير

كتابا كله سخرية ، فانتشر الكتاب وذاع ، وتسلى الناس بقراءته ، وتمتعوا
بفكاهته ، وحلّت في أذهانهم هذه الصورة الجديدة ، محل الصورة القديمة .

وأتى مؤرخ عظيم عاش في أواخر الدولة الأيوبية ، هو ابن خلكان فكتب
ترجمة لحياة الأمير بهاء الدين قراقوش ، قال فيها : « والناس ينسبون إليه أحكاما
عجيبة ، في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين ، حتى إن الأسعد بن مماتى له فيه
كتاب لطيف ، سماه : « الفاشوش ، في أحكام قراقوش » وفيه أشياء يبعد وقوع
مثلا منه ، والظاهر أنها موضوعة ، فإن صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة
عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ، ما فوضها إليه » .

فمن هو ابن مماتى ؟ وهل هناك سبب دعاه إلى كتابة هذا الكتاب ؟
وهل أرادت السياسة أن تنتفع به يوما ما ؟ ومتى كان ذلك ؟

هذه كلها أسئلة نريد الإجابة عنها ، فسأتى بطرف من سيرة ابن مماتى .
أولا ، ثم نوضح الظرف الذى أفادت فيه السياسة من هذا الكتاب نفسه
بعد ذلك ، ثم ننتقل إلى البحث فى قيمة السخرية التى اشتمل عليها آخر الأمر .



ترجمة ابن مماتي

أما ابن مماتي هذا ، فهو الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب ابن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مماتي . ولد حوالى سنة ٥٤٤ للهجرة ، من أسرة مسيحية ، بأسىوط من مدن الصعيد ، وقيل فى تسمية جده باسم «ممّاتى» إن جماعة حدثت بمصر فى وقت ما ، ولم يجد الناس فيها ماياً كلونه ، وكان هذا الرجل غنياً ، وكانت عنده أقوات كثيرة ، فكان الأطفال يذهبون إلى بيته ، وينادونه كما ينادون أمهاتهم ، هاتفين به «ممّاتى ! ممّاتى !» ، فيخرج إليهم من بيته بما يطلبون .

واشتهر الأسعد نفسه بالأدب ، وأصبح من كبار أدباء مصر المعدودين ، واتصل بالقاضى الفاضل ، زعيم النهضة الأدبية فى وقته ، وبالعقاد الأصفهاني ، وغيرها من فرسان هذه الحلبة ، وكان القاضى الفاضل يحبه ويقربه ، ويطلق عليه اسم «بلبل المجلس» . ولعل ابن مماتي توصل عن طريق القاضى الفاضل لأن يكون فى عهد السلطان صلاح الدين رئيساً لديوان الجيش ، وبقي يشغل هذه الوظيفة الكبيرة طول مدة العزيز ، ثم لما ملك العادل مصر ، واتخذ فيها رجلاً عاتياً جباراً ،

هو صفى الدين بن شكر وزيره ؛ خافه ابن مماتى ، لما كان يصدر منه فى حقه ، فتركه وفرّ بنفسه هاربا من القاهرة .

ولعل أشهر سيرة للأسعد ابن مماتى ووالده المذهب الخطير مماتى ، هى هذه السيرة التى كتبها لهما ياقوت فى كتابه المعروف بإرشاد الأريب ، إلى معرفة الأديب ^(١) ، وفيها يقول عن ابن مماتى ، مع قليل من التصرف :

« هو أحد الرؤساء الأعيان الجِلَّة ، والكتاب الكبراء المنزلة ، ومن تصرف فى الأعمال ، وولى رئاسة الديوان ، وله أدب بارع ، وخاطر وقاد مسارع ، وقد صنف فى الأدب وعرف ، ومات بمدينة حلب فى الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٦ للهجرة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . أصله من نصارى أسيوط ، بليدة بصعيد مصر ، قدموا مصر ، وخدموا وتقدموا ، ووُلُّوا الولايات . وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق ، وهو كالمستولى على الديار المصرية ، ليس على يده يد ، والمسمون بالخلافة محجوبون ، ليس لهم غير السكة والخطبة .

وكان إلى مماتى (جد الكاتب) كثير من أعمال الديوان . فحدثنى صاحب الوزير الجليل ، جمال الدين الأكرم ، أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى ، حرس الله علاه ، بمدينة حلب — قال : بلغنى أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ، ومعه سمكة مصنوعة من عنبر ، قد تُنَوَّق فيها وأجيدت ، وطويت ورصّعت بالجواهر ، فعرضها على بدر الجمالى لبيعها منه ، فسأها من صاحبها ،

(١) إرشاد الأريب — نشر مرجوليوث — سلسلة جب التذكارية — (٢-٧١)

فقال : لا أنقصها من ألف دينار شيئا ؛ فأعيدت إليه ، فخرج بها من دار بدر ، فقال له أبو المليح ، وهو جد الكاتب ، أرني هذه السمكة ، فأراه إياها ، فقال له : كم سميت فيها ؟ فقال : لا أنقصها من ألف دينار درهما واحدا ؛ فأخذ بيده ، وقبض ألف دينار من ماله ، وتركها عنده مدة . فاتفق أن شرب أبو المليح يوما وسكر ، وقال لندمائه : قد اشتيت سمكا ، هاتم^(١) المقلّي والنار حتى نقليه بحضرتنا . فجاءوا بمقلّي حديد وفحم ، وتركوه على النار ، وجاء هو بتلك السمكة العنبر ، فتركها في المقلّي ، فجعلت تتقلّى وتفوح روائحها ، حتى لم تبق بمصر دار إلا ودخلتها تلك الرائحة . وكان بدر الجمالي جالسا ، فشم تلك الرائحة ، وتزايدت ، فاستدعى الخزان ، وأمرهم بفتح خزائنه وتفتيشها خوفا من حريق قد يكون وقع فيها ، فوجدوا خزائنه سالمة ، فقال : ويحكم ! انظروا ما هذا ؟ ففتشوا حتى وقعوا على حقيقة الخبر ، فاستعظمه وقال : هذا النصراني الفاعل الصانع قد أكل أموالى ، واستبد بالدنيا دونى ، حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا ! وتركه إلى الغداة ، فلما دخل إليه وهو مغضب قال له : ويحك ! استعظم أنا وأنا ملك مصر ، شراء سمكة من العنبر ، فأتركها استكثارا لثمنها ، فتشترىها أنت ، ثم لا يقنعك حتى نقلها ، وتذهب فى ساعة ألف دينار مصرية ! ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالى إليك وفعلت ! فقال له : والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك ، ومحبة لك ، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا ، وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك ، نخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك ، ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشتريها ، فأردت أن أعكس الأمر ، وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقارا لها ، وأنها لم يكن لها عندك مقدار ،

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل .

وأن كاتبنا نصرانيا من كتابك اشتراها وأحرقها ، فيشيع بذلك ذكرك ، ويعظم عند الملوك قدرك .

فاستحسن بدر ذلك منه ، وأمر له بصعفي ثمنها ، وزاد في رزقه !
وكان مماتى مع ذلك كريما قد مدحه الشعراء ، فذكر أبو الصلت في كتاب الرسالة المصرية له : إن أبا طاهر إسماعيل بن محمد النشاع ، المعروف بابن مكنسة كان منقطعا إليه . فلما مات مماتى رثاه ابن مكنسة بقصيدة منها :

ماذا أرجى من حيا قى بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنى من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما غدروا به دين المسيح
كذا قال ، ولعلمهم اغتالوه أو قتلوه .

ولما ولى الأفضل بن أمير الجيوش بدراجمالى بعد أبيه ، دخل إليه ابن مكنسة مادحا ، فقال له : ذهب رجاؤك بموت أبى المليح ، فما الذى جاء بك إلينا ؟ وحرمة ، ولم يقبل مديحه .

وكان المهذب والده ، يلقب بالخطير ، وكان كاتب ديوان الجيش بمصر فى أواخر أيام المصريين (يريد الفاطميين) وأول أيام بنى أيوب مدة ، فقصده الكتاب ، وجعلوا له حديثا عند السلطان ، فهم به صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أو أسد الدين شيركوه ، وهو يومئذ المستولى على الديار المصرية ، فخاف المهذب ، فجمع أولاده ، ودخل على السلطان ، وأسلموا على يده ، فقبلهم ، وأحسن إليهم ، وزاد فى ولايتهم ، وجب الإسلام ما قبله .

قال ياقوت : ووجدت على ظهر كتاب من تصانيف ابن ممتي مكتوبا :
كان المذهب المعروف بالخطير مرتبا على ديوان الإقطاعات ، وهو على دين
النصرانية ، فلما علم أسد الدين شيركوه في بدء أمره بمصر أنه نصراني ، وأنه يتصرف
في عمله بلا غيار ، نهاه ، وأمره بغير النصارى ، ورفع الذؤابة ، وشد الزنار ،
وصرفه عن الديوان ، فبادر هو وأولاده فأسلموا على يده ، فأقره على ديوانه مدة ،
ثم صرفه عنه . فقال فيه ابن الذروري :

لم يُسلم الشيخ الخطير لرغبة في دين أحمد
بل ظن أن محاله يَبْقَى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنه فدينه (العود أحمد)

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغيار^(١) ، وأن يعمموا بغير عذبة ، قال
مُعمارة اليمنى :

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غيارا شد أوساطنا فما للذي يوجب كشف القفا ؟
ومن عجيب ما جرى للخطير (والد ابن ممتي) أنه كان يوما جالسا
في ديوانه ، في حجرة موسومة بديوان الجيش ، من قصر السلطان بمصر ،
وكانت حجرة حسنة مرخمة منمقة ، فجاء قوم وقالوا له : قم من ها هنا . فقال لهم :
ما الخبر ! فقالوا : قد تقدم الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأخذ رخام هذه الحجرة ،
وأن يعمر به موضعا آخر . فخرج منكسرا كاسفا . فقيل له في ذلك ، فقال :
قد استجيت فينا دعوة ، وما أظنني أجلس في ديوان بعدها ، أما سمعتم إذا بالغوا

(١) الغيار لباس يختص بالنصارى ، وكان عليهم أن يلبسوه ليغيروا به المسلمين .

في الدعاء علينا قالوا : خرب الله ديوانه . وما بعد الخراب إلا الباب . ثم دخل منزله أو حم ، فلم يخرج منه إلا ميتا . فلما مات خلفه ابنه الأسعد هذا على ديوان الجيش ، وتصدر فيه مدة طويلة ، ثم أضيف إليه في الأيام الصلاحية والعريزية ديوان المال ، وهو أجل ديوان من دواوين مصر ، وتصدر فيه ، واختص بصحبة القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني ، وحظى عنده ، وأكرم لديه ، فقام بأمره ، وأشاع من ذكره ، وتبّه على فضله ، وصنف له عدة تصانيف باسمه . ولم يزل على ذلك إلى أن ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب الديار المصرية . وكان وزيره والمدير لدولته الصفي عبد الله بن علي بن شكر ، وكان بينه وبين الأسعد دحل^(١) قديم ، أيام رياسته عليه ، ووقعت من الأسعد إهانة في حق ابن شكر ، فحقدّها عليه ، إلى أن تمكن منه . فلما ورد مصر أحضر الأسعد إليه ، وأقبل بكليته عليه ، وفوض إليه جميع الدواوين التي كانت باسمه قديما ، وبقى على ذلك سنة كاملة ، ثم عمل له المؤامرات ، ووضع عليه المحالات ، وأكثر فيه التأويلات ، ولم يلتفت إلى أعذاره ، ولا أعاره طرفا لاعتذاره ، فنكبه نكبة قبيحة ، ووجهه عليه أموالا كثيرة ، وطالبه بها ، فلم يكن له وجه ، لأنه كان عفيفا ذامروءة ، فأحال عليه الأجناد ، فقصدوه وطالبوه ، وأكثروا عليه وآذوه واشتكوا إلى ابن شكر ، فحكمهم فيه . فحدثني المؤيد إبراهيم بن يوسف الشيباني قال : سمعت الأسعد يقول : علّقت في المطالبة على باب داري بمصر على ظهر الطريق في يوم واحد إحدى عشرة مرة ، فلما رأوا أنني لا وجه لي ، قيل لي تحيّل ونجم هذا المال عليك في نجوم^(٢) . فقلت أما المال فلا وجه له عندي ، ولكن إن

(١) الدحل : الثأر . (٢) أقساط .

أطلقت وميلكت نفسي ، استجديت من الناس ، وسألت من يخافني ويرجوني ،
 فعلى أحصل من هذا الوجه . فأما من وجه حاصل ، فليس لي بعدما أخذتموه مني
 درهم واحد ؛ فنُجِّم المالُ عليّ ، وأطلقت ، وبقيت مُدَيَّدةً إلى أن حل بعض نجوم
 المال عليّ ، فاخفيت واستترت ، وقصدت القرافة ، وأخفيت نفسي في مقبرة
 المادرائيين^(١) ، وأقمت بها مدة عام كامل ، وضاق الأمر عليّ ، فهربت قاصدا
 للشام ، على اجتهد من الأستاذ ، فلحقني في بعض الطريق فارس مجدّ ، فسلم
 عليّ ، وسلم إلى مكتوبا ، ففضضته وإذا هو من الصفيّ بن شكر ، يذكر فيه :
 « لا تحسب أن اختفاءك عني كان بحيث لا أدرى أين أنت ، ولا أين
 مكانك . فاعلم أن أخبارك كانت تأتيني يوما يوما ، وأنت كنت في قبور
 المادرائيين بالقرافة منذ يوم كذا ، وأنت اجتزت هناك ، واطلعت فرأيتك بعيني ،
 وأنت لما خرجت هاربا عرفت خبرك ، ولو أردت ردك لفعلت ، ولو علمت أنك
 قد بقي لك مال أو حال لما تركتك . ولم يكن ذنبك عندي مما يبلغ أن أتلف
 معه نفسك ، وإنما كان مقصودي أن أدعك تعيش خائفا فقيرا غريبا ممجّجا
 في البلاد ، فلا تظن أنك هربت مني بمكيده صحت لك عليّ ؛ فاذهب إلى غير
 دعة الله » .

قال : وتركني القاصد وعاد ، فبقيت مبهوتا إلى أن وصلت إلى حلب .
 فحدثني الصاحب جمال الدين الأكرم أدام الله علوه ، قال :
 ورد الأسعد إلى حلب ، ونزل في داري ، فأقام عندي مدة ، وذلك

(١) في ياقوت : « المادرائيين » بالذال ، وهو تصحيف . قال في تاج العروس : ومحمد
 ابن علي المادرائي وزير مصر . أورده في مدر .

في سنة ٦٠٤ ، وعرف الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ابن أيوب رحمه الله خبره ، فأكرمه ، وأجرى عليه في كل يوم ديناراً صورياً ، وثلاثة دنانير أخرى أجرة دار ، غير بر وألطف ما كان يخليه منها . وأقام عنده على قدم العطة إلى سنة ٦٠٦ كما ذكرنا ، ومات ، فدفن بظاهر حلب ، بمقام بقرب قبر أبي بكر الهروي .

وله تصانيف كثيرة ، يقصد بها قصد التأديب ، وفي معرض وقائع تجرى ، ويعرضها على الأكابر ، لم تكن مفيدة إفادة علمية ، إنما كانت شبيهة بتصانيف التعالبي وأضرابه ، فمن ذلك :

- (١) كتاب تلقين التفنن ، في الفقه .
- (٢) » سر الشعر .
- (٣) » علم النثر .
- (٤) » الشيء بالشيء يذكر (عرضه على القاضي الفاضل ، فسماه سلاسل الذهب ، لأخذ بعضه بشعب بعض) .
- (٥) كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف .
- (٦) » قرقرة الدجاج ، في ألفاظ ابن الحجاج .
- (٧) » الفاشوش ، في أحكام قراقوش .
- (٨) » لطائف الذخيرة لابن بسام .
- (٩) » ملاذ الأفكار ، وملاذ الاعتبار .
- (١٠) » سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب .
- (١١) » أخاير الذخائر .

- (١٢) كتاب كرم النجار في حفظ الجار (عمله للملك الظاهر لما قدم عليه) .
(١٣) » ترجمان الجمان .
(١٤) » مذاهب المواهب .
(١٥) » باعث الجلد ، عند حادث الولد .
(١٦) » الخض ، على الرضى بالحظ .
(١٧) » زواهر السدف ، وجواهر الصدف .
(١٨) » قرص العتاب .
(١٩) » درة التاج .
(٢٠) » ميسور النقد .
(٢١) » أعلام النصر .
(٢٢) » خصائص المعرفة في العميَّات .

* * *

وكان علم الدين ابن الحجاج شريكه في ديوان الجيش ، وكان بينهما ما يكون
بين المتماثلين في العمل ، فعمل فيه الكتاب المتقدم ذكره ، وهجاه بعدة أشعار ،
منها :

حكي نهريْن ما في الأر ض من يحكيهما أبدا
ففي أفعاله ثورَى وفي ألفاظه برّدا^(١)
ثم أورد ياقوت طائفة صالحة من أشعار ابن مماتي ، كثير منها في وصف
الثلج ، منها قوله على سبيل المثال :

(١) ثورَى وبردى : نهران مشهوران بأرض الشام ، وفيهما تورية يفهمها القارى .

قد قلت لما رأيت الثلج منبسطا على الطريق إلى أن ضلّ سالكها
ما بيّض الله وجه الأرض في حلب إلا لأن غياث الدين مالکها
تلك إذن أطراف من سيرة الأسعد بن مماتي ، وأطراف من سيرة والده
مهدب بن مينا ، الملقب (بالخطير) ؛ ومنها نعلم أن كاتبنا نشأ في بيت غني وجاه ،
وأن أسرته كانت من الأسر المشهورة في الديار المصرية ، وأنها كانت تتولى عملا
هاما من أعمال الحكومة ، على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبيّة ، وأنها دخلت في
الإسلام ، فزاد الإسلام في شأنها ، وإن كان هذا قد أتاح لأعدائها فرصة السخرية
منها والتهكم بها ؛ وكان من أشهر ما تمتاز به هذه الأسرة ، فوق خصال الكرم والجود
والأمانة والمروءة ، صفة العلم والأدب ، ولقد برع ابن مماتي نفسه في الكتابة ، براعة
أمكنته من كتابة هذا العدد الضخم من الكتب . على أن يا قوتا لم يحص كل
ما عرف لابن مماتي من كتب ؛ ونحن نعرف أن من بينها كتابا ذكره
ابن خلكان هو « نظم كلیلة ودمنة » وكتابا خطير الشأن هو كتاب « قوانين
الدواوين » وهو الكتاب الذي أمر بنشره المغفور له الأمير عمر طوسون .

لم يبق بعد إلا أن نعرض صورا من كتاب الفاشوش كما وصل إلينا .

ولقد آثرنا هنا أن نقدم ثلاثا من هذه الصور :

الأولى : صورة من النسخة التي نسبت إلى ابن مماتي نفسه ، ورجّح الأستاذ
كازانوفنا صحة هذه النسبة .

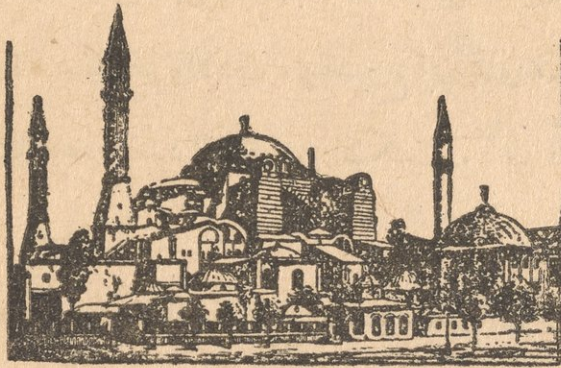
الثانية : صورة من النسخة التي كتبها جلال الدين السيوطي في القرن
التاسع للهجرة .

الثالثة : صورة من نسخة عنوانها : « الطراز المنقوش في حكم السلطان

قراقوش » وهى متأخرة زمنا عن النسختين السابقتين .

أما الأولى فقد نقلناها كاملة أو كالكاملة ، وأما الأخرى ان فقد اكتفينا

منهما بما لم تشتمل عليه الأولى .



كتاب الفاقوش في حكم قراقوش

وأول هذا الكتاب قوله :

« إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزّمة فاقوش^(١) ، قد أتلف الأمة ،
والله يكشف عنهم كل غمّة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم .
الشكّية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد من عظم منزلته
على أن يرد كلمته ، ويشتط^(٢) اشتياط الشيطان ، ويحكم حكما أنزل الله به من
سلطان ؛ صنّفت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين .
وكان قراقوش رجلا صقلييا يميل إلى البيض ويكره السود ... الخ » .
ثم ساق الكاتب ما أراد سوقه من الحكايات^(٣) الدالة على ذلك ومنها :

(١) في القاموس : الفاقوش الأحق ، وفشى الرجل افتخر بالباطل وفشفس ضعف رأيه
وأفرط في الكذب ، ومحزّمة على وزن مكنسة ما يحزم به : والمعنى أن عقل قراقوش لا ينطوى
إلا على الغباء والحمق .

(٢) هكذا وردت بالأصل . والصحيح أنها اشتياط ليكون مصدرها اشتياط . غير أننا
لا نملك هنا تصحيح النص على هذا النحو حتى لا نضر به .

(٣) انظر بحثا للأستاذ كازانوفا في 44 Mission Archeologique Française au Caire .

فأول حكومة أن امرأة حجازية لها جارية تركية ، قالت لقراقوش :
إن هذه جاريتي قد أساءت الأدب عليّ . فنظر قراقوش إلى بياض
الجارية التركية وسواد الحجازية فقال للحجازية : ويلك ! خلق الله جارية
تركية لجارية سوداء حجازية ؟ ما أنا مطغوم ^(١) ولا مدوّخ . يا غلمان ودّوا ^(٢)
هذه الحجازية الحجر !

فكثت الحجازية شهرا وما لبثت أن عادت إليه تقول :
إنني قد اعتقتها لوجه الله تعالى . فقال :

هذا الحال متى تعتقك ، فإنك جاريتها ، وإن أردت بيعك فتبيعك ،
وإن أردت عتقك فتعتقك . فقالت الحجازية للتركية : اعملي معي مثل ما عملت
معك . فقالت التركية : وما تريدين مني ؟ فقالت الحجازية : أن تعتقيني .
فقالت التركية : إنني قد عتقت سيدتي الحجازية . فقال قراقوش : جزاك الله
خيراً !!

وأناه ثلاثة أنفس : أحدهم أجروود سقاط ^(٣) والاثنين كبار اللحى ، وقد
نتف الأجروود ذقونهما . فقال الرجلان : يامولانا بهاء الدين ، خذ لنا حقنا من
هذا ، فقد نتف ذقوننا وخرّق ثيابنا .

(١) الطغامة كسجاجة الأحمق ، والطغومة الحماقة ، وتطعم تجاهل .

(٢) يريد أن يقول (خذوا) وهي لهجة مصرية لم تزل مستعملة بمصر إلى اليوم .

(٣) السقاط : الخفيف العارض الذي لا حية له أصلا ، أو حية بالذق وما بالعارضين شيء .

فنظر قراقوش إلى الأجرود السناط وقال : ويلكم ! تنتم ذقن هذا الصبي
وجئتم تشكونه ! ودوها إلى الحبس ، ولا تخرجوها حتى تطلع ذقن هذا الصبي !

وقيل إن امرأة أخته بولدها ، فقالت : يا سيدي ، إن ولدي يشتمني . فأمر
بحبسه سنة ، فلم يأخذ أمه تلك الليلة نوم ، فلما أصبحت راحت إلى السجنين
وقالت : ما الحيلة في خلاص ولدي من هذا الحبس ؟ فقالوا لها : هاتي حلاوتنا
ونعرفك إيش ، (أى شيء) تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش ؛ فدفع
إليهم الفضة ، وقالوا لها : روجي الساعة إلى الأمير ، وقولي له : يا سيدي ، أنا
امرأة حبست لي ولدي سنة ، وقد انقضت السنة ، فأخرج لي ولدي . فأتت
المرأة إلى الأمير قراقوش ، وقالت له ذلك . فقال لها : روجي ، بلا محال قد بقي له
من السنة سبعة أيام ، من سوى أمس وغدا . فمضت المرأة وأعلمت السجنين ،
فقالوا لها : هذه نعمة . فإذا كان غدا ، روجي إليه ، وقولي له : قد انقضت
السبعة أيام .

فأصبحت المرأة وجاءته ، فلما نظر إليها قال : يا امرأة ، حتى تغرب الشمس !
يا غلام ، فإذا غربت الشمس ، فأطلق لها ولدها من الحبس . ولا ترجعي
تجيبه^(١) أو يحبسوه سنتين . . . الخ !

(١) سيجد القارئ في هذه الحكايات عدا الألفاظ العامية كثيرا من الأخطاء النحوية ،
وليس من حقنا أن نصححها لأمرين : أولهما الأمانة العلمية ، وثانيهما الحرص على أن تقدم للقراء
صورة من لغة الأدب الشعبي في مصر ، في القرنين السادس والسابع للهجرة .

وقيل : إنه سابق رجلا بفرس له ، فسبقة الرجل بفرسه ، فحلف أنه لا يعلفه
ثلاثة أيام . فقال له السابق : يا مولاي يموت . فقال له قراقوش : احلف لى أنك
إذا علفته يا هذا ، لا تعلمه أننى دريت بذلك !

قيل : وأتوه بسلام له ركبدار^(١) ، وقد قتل ، فقال : اشنقوه ! فقيل له :
إنه حدّ أدك ، وينعل لك الفرس ، فإن شنقته انقطعت منه . فنظر قراقوش قبالة
بابه لرجل قفّاص^(٢) ، فقال : ليس لنا بهذا القفّاص حاجة ! فلما أتوه به ، قال :
اشنقوا القفّاص ، وسيبوا الركبدار الحداد ، الذى ينعل لنا الفرس !

وتوقف النيل بمصر أياما ؛ فنظر إلى جمال السقاين عشرين وعشرين ،
ففكر عند ذلك وقال : فإننا نقول الماء ما يوفى من هذا إلاّ فات^(٣) . يا غلمان ،
نادوا فى المدينة : قد أمر بهاء الدين قراقوش لا يملأ أحد من البحر إلاّ جملا واحدا .
ففعّلوا ذلك ، فأوفى النيل . فقال لهم : ياهؤلاء ، الويل لكم إن عدمتمونى ،
فكيف رأيتم رأيى عليكم ؟ فما هو إلاّ رأى مبارك !

ومدحه رجل بقصيدة ، وأنشدها بصوت طيب ؛ فقال له قراقوش :
يا مكرىء ! لقد قرأت طيب ، وأنا أريد أن أحرز هذه القصيدة على

(١) لعلها ركبدار أى صاحب الركاب .

(٢) القفّاص هنا : صانع الأقفاص جمع قفص .

(٣) كذا بالأصل .

ذراعى ، فأنت مدحتنا ، ونحن دعونا لك ، فجزاك الله عنا خيرا !
فقال الشاعر : وأنت فلا جزاك الله عنا خيرا !
فقال بهاء الدين : يا هذا ، كأنى أراك جائعا ، أعطوه مائة أردب قمح .
فأخذها الشاعر وانصرف .

وحكى أنه بات ليلة عند قاضى المطرية ، فأخرج له قراقيش ^(١) وزيتون .
فقال له قراقوش : إن كان فى غداة غد ، فتعال إلينا القاهرة .
فلما أصبح القاضى ، ركب مهرة له ، وأتى إلى قراقوش يسلم عليه ، فأبصر
حصان قراقوش المهرة فشب ، فتقطب قراقوش ، فحصل له بذلك تشويش .
فقل فخطَّ القاضى فى الحبس سنة ؛ ثم أخرجه واستخدمه على الأهراء ^(٢) ،
فمكث سنة فى أطيب عيش ، فأتاه وقت الغلة يسلم عليه . فقال له قراقوش :
اعمل لنا حساب القمح والشعير والحمص .

فكتبهم القاضى فى جريدة بالكل ، وأتاه بها . فقال له : ما هذا ؟ خلطت
القمح والشعير والبول والحمص فى جريدة واحدة ؟ يا غلمان احبسوه !

فمكث فى الحبس سنة ثانية . فدخل الحبس رجل نصرانى ، فتحدث
هو والقاضى ، فعلمه كيف خلاصه . فأخذ النصرانى منه الجريدة ، فكتب بالقمح
وحده ، وبعثه إلى قراقوش . وبعد شهر كتب بجريدة الشعير وحده ، وبعد شهر
كتب بجريدة البول وحده ، وبعد شهر كتب بجريدة الحمص وحده ، فلما حصل

(١) الخبز المجفف ، وهى كلمة عامية مازالت مستعملة بمصر للآن .

(٢) الأهراء : جمع هري ، وهو المكان الذى يجمع فيه محصول السلطان من قمح وغيره .

الكل عند قراقوش قال : لقد تعبت يا فقيه . نقيت هذا من هذا ، وذا من ذا !
زفوه في المدينة !

قيل : زفوه في المدينة !
خلف القاضي ألا يبقى يخدم قراقوش أبدا .

قيل وجاءه شاب مضروب ، فبعث معه خمس رجال من الجنادرية^(١) ، فبلغ
ذلك خصمه الظالم ، فسبقه ووقف بجانب قراقوش .

فلما أقبل الشاب قال الخصم : هذا الذي قتلتني وضربني !
فبطحه الأمير وضربه ، إلى أن أشرف على الموت وهو يقول : أنا مظلوم !
فقال له قراقوش : سبقك !

خلف الناس أنهم لا يتعدون ما دام قراقوش في البلد حاكما .

قيل وأتوه بمحضر فيه شهادة المسلمين بإثبات دار في حُط قصر الشمع .
فنظر عند ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش في المحضر ، وقال : يا هؤلاء ، أكلمتم
المحضر بخط رئيس اليهود ؟ فقالوا : لا . فقال : هذا كله زور وبهتان ومحال ،
ورمى المحضر من يده !

قيل وأتاه شيخ وصبي أمرد ، كل^(٢) منهما يقول : يا مولاي داري !

(١) الجنادرية : من جاندارمه بمعنى الحارس أو المتبع للعصاة والمجرمين .

(٢) في الأصل : كلا .

فقال عند ذلك قراقوش للصبي : معك كتاب يشهد لك ؟ فالدار ما تكون
إلا للشيخ الكبير . يا صبي ، ادفع له داره ، وإذا صرت في عمر هذا الشيخ
الكبير دفع لك الدار !

— ١٢ —

وأتوه بسلام ، وفي يده ديك ، فقال : يا هذا ! إن هذا الديك لو نقر عينك
لكان يقلعها . يا غلمان ، خذوا منه دية عينه . !
خلف الغلام ألا يقعد في مدينة يكون حاكمها قراقوش أبدا .

— ١٣ —

وأتاه رجل نصراني ، مخاف أن يدخل بدواته الآبنوس السوداء ، فيقول
الأمير : « صبحتنا بالسواد » ، فجعلها في خرقة ، فسالت الليقة على ساق النصراني ،
فقال له قراقوش : ويلك ! مما تغلط في دفاتر مولانا السلطان وتلحسهم (أي
تلحس الأغلاط) صارت بدلتك سودا . !
يا غلمان : ودّوه إلى الحبس حتى تبيض بدلته ثم نخلصه . !

فهذا بعض ما وضعه ابن ممتا . والقارىء لهذه الحكايات يعجب من
الكاتب ، كيف وصف الأمير بهاء الدين قراقوش بأوصاف تتدرج في القبح
والشناعة ، وإن كادت تتقارب في هذا القبح وهذه الشناعة ، فيصفه في هذه
الحكايات بالظلم ، الذي لا يصدر عن قدرة ، ولكن يصدر عن غفلة ؛ ويصفه
بالبله الذي جعله يطلب إلى صديقه أن يغلف الفرس ، على شريطة ألا يعلم الفرس

نفسه أن الأمير أمر بذلك ! وأى غفلة أكبر ، وخبل أعظم ، من خبل رجل يحسب اليوم سنة كاملة ، ثم يحسب الليلة وحدها أسبوعاً كاملاً ، كما تصوره قصة المرأة التي اشتكت إليه ولدها ؟ !

بل أى غباء هذا الذى يظهر لنا من حكاية السقاين ، الذين أمرهم الأمير ألا يملأ كل منهم من النيل أكثر من جمل واحد ، ثم لما زاد النيل ظن أن الزيادة إنما أتت من اقتصاده فى الماء ، وقيامه على تدير أمره ؟ !

وبم نصف قراقوش فيما زعمت لنا هذه القصص الخبيثة ، حين نقرأ خبره مع القاضى الذى كتب له حساب القمح والشعير والفول فى ورقة واحدة ، فخبسه الأمير ، ثم لم ينقذه من السجن إلا كتابة كل صنف على حدته ، فى ورقة مستقلة ، فلما اجتمعت الأوراق كلها لدى الأمير قال للقاضى : لقد تعبت يا فقيه ، فنقيت هذا من هذا ، وذا من ذا ؛ ثم أمر غلمانه فطافوا به المدينة ؟ !

وهكذا استطاعت هذه القصص أن تزرى بالأمير ، وأن تضحك الناس منه ومن عقله وخلقه ، بطريقة ربما لا يستطيع أن يحسنها الشعر الهجائى نفسه ، مهما بلغ من الشناعة والإقذاع ، والقبح والتبذل . بل هكذا استطاعت هذه القصص الصغيرة أن تمسح من أذهان الناس الصورة الحقيقية للأمير ، وترسم مكانها صورة أخرى ، أصبحت عند الناس رمزاً للبله والغفلة ، والحق والتعسف ، والخبل والأنانية . !

ثم إن كتاب الفاشوش كغيره من كتب القصص والخرافات ، تداوله الناس جيلاً بعد جيل ، وكثيراً ما وجدوا فيه راحة لهم من حاكم ظالم ، أو أميرات ، أو وائلٍ معتوه ، أو رئيس طاش رأيه ، ونساء سمعته .

والكتاب نفسه ، في أثناء ذلك كله ، يأخذ أشكالا مختلفة ، يختص كل شكل منها بجبل من الأجيال ، أو أمة من الأمم . وذلك حتى نسي الناس جملة شخصية الرجل الذي وضع الكتاب من أجله ، ونسوا المؤلف نفسه .

من ذلك مثلا أنه في القرن الثامن للهجرة ظهر أن وزيرا عظيما كمحيي الدين ابن عبد الظاهر ، من وزراء دولة المماليك ، كان يجهل أن الكتاب لابن ممتا . ثم في القرن التاسع الهجري ألف عالم خطير ، وفقه كبير ، هو الشيخ جلال الدين السيوطي كتابا اسمه « الفاشوش » ، في أحكام قراقوش » ، قال فيه عن نفسه : « وبعد ، فقد سئلت في دروسى بالجامع الطولونى فى أواخر المحرم سنة تسع وتسعين وثمانمائة عن قراقوش ، وهل له أصل فى التاريخ أم لا ؟ وهل ما يعزى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا ؟ فجمعت فيه هذه الأوراق فى تلك الليلة ، وحررتها فى ساعات قليلة » .

ثم نسب السيوطى إلى صاحب كتاب « النجوم الزاهرة » أنه قال عند ذكر السلطان صلاح الدين الأيوبي : « وكان وزيره بمصر صاحب بهاء الدين قراقوش ، صاحب الحارة المعروفة بسويقة صاحب القديمة فى الجامع الحامى ، وكان رجلا صالحا غلب عليه الانقياد إلى الخير ، وكان السلطان يعلم منه عدم الفطنة والنباهة ، وكان إذا سافر السلطان من مصر إلى الشام فى زمان الربيع ، كما هى عادته فى كل سنة ، يفوض إليه أمرها ، مع مشاركة بعض أولاده ، لعدم استيثاقه منه بالانفراد فى ذلك ، لكنه فى عام إحدى وستين وخمسمائة حكمها منفردا من غير مشاركة ، لوفاء ولى العهد المشارك له فى ذلك ، فلم يستقم له الحال ، ووضعت عليه الحكايات المضحكة » .

ثم أورد السيوطي حكايات ونوادر عن بهاء الدين قراقوش ، منها ما هو
مذكور في النسخة التي اعتمدنا عليها ، ومنها ما هو غير مذكور بها ، ومن هذه
الحكايات التي كتبها السيوطي : —

— ١ —

حكى عن قراقوش أنه نشر قميصه ، فوقع من على الحبل ، فبلغه ذلك ،
فتصدق بألف درهم ، وقال : لو كنت لابسه ووقع بي لانكسرت !

— ٢ —

وحكى أنه كان في كل سنة يتصدق بمال جزيل ؛ فلما انتهت الصدقة أنهت
إليه امرأة أن زوجها مات ولا كفن له . فقال : أما الصدقة بتاع هذه السنة
ففرغت ، ولكن إذا كانت السنة الآتية ، فتعالى نرسم لك بكفن ، إن شاء
الله تعالى !

— ٣ —

وحكى أن جنديا نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجته ، فضر بها الجندي ،
فسقطت ، وكانت في سبعة أشهر ، فشكا الفلاح الجندي للأمير ، فقال له :
خذ زوجة الفلاح عندك ، وأطعمها وأسقيها ، حتى تصير في سبعة أشهر ، وأعدها
إلى زوجها . فقال الفلاح : يا مولانا ، تركت أجرى على الله ! وأخذ زوجته وذهب .

— ٤ —

وحكى أن شخصا شكاه مماطلة غريمه ، فقال له المدين : يا مولانا ، إني
رجل فقير ، وإذا حصلت شيئا له ، لا أجده ؛ فإذا صرفته ، جاء وطالبني . فقال

قراقوش : احبسوا صاحب الحق ، حتى يصير المديون إذا حصل شيئاً يجد له موضعاً معلوماً يدفع له فيه !

فقال صاحب الحق : تركت أجرى على الله ، ومضى . !

ويحكى أنه سرقت عملة في زمنه ؛ فقال لأصحاب العملة : الحارة بتاعتكم لها درب ؟ (يريد باب) . فقالوا له : نعم . فقال : اذهبوا إيتوني به ، ففعلوا ، وجاءوا بالدرب إليه . فقال : مُدوه . فقالوا : يا مولانا ، هذا خشب لا يعقل ! فقال لهم : افعلوا ما أمركم به : فمدوه وضربوه ، ونزل إليه قراقوش ، ووضع أذنه بجانبه ، وجعل يوشوشه ؛ فلما فرغ قال لهم : اجمعوا إلى باقى أهل الحارة والدرب . فلما حضروا قال لهم : الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة ، وكان سارق العملة (واقف) بجملة الناس ، فتوهم ورفع يده إلى رأسه ، فرآه قراقوش فأمر به ، وقرره بالضرب ، وأحضر العملة ، ودفعها إلى أصحابها .

وحكى أنه طار له باز ، فقال : اقفلوا باب النصر ، وباب زويلة . فإن الباز لا يجد له موضعاً يطير منه !

ويحكى أنه كان بمصر رجل تاجر ، وكان بخيلاً ؛ وكان ولده يقترض على موته قدراً معلوماً ، فزاد عليه وما مات والده ، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة . فدخل هو والدائنون عليه ، وغسلوه وكفنوه ، ووضعوه فى النعش ، وهو يصيح فلا يُغاث ؛ وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله . فلما وصلوا

للمصلاة عليه ، اتفق أن قراقوش كان ماراً ، فنزل وصلى عليه . فلما سمع الميت بذلك قال : الحمد لله ، جاءنى الفرج ! فجلس فى التابوت ، وقال : يا مولانا السلطان ، خلّص حقى لى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة ! فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب على يا مولانا السلطان . ما غسلته إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ؛ وهؤلاء الحاضرين يشهدون بذلك . فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا نشهد بما قال الولد . فالتفت قراقوش للميت وقال : أنا جيت أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين . روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم ! فحملوه ودفنوه بالحياة ، فى ذمة قراقوش !

— ٨ —

ويحكى ^(١) أنه وجد كردى يعمل فى حمارة ، فقال : حدّوه ! : فحدّوه . وقال : حدّوا الحمارة ! ! فقيل له : إنها حمارة خرساء لا عقل لها . فقال : حدوها لأن لها الغرض ، لو اشتيت ^(٢) رفضته برجلها ، أو عضته بفمها ، أو هربت منه . حدّوها لا تطمع فيها الزناة ! فحدّوها .

— ٩ —

«بلى ذلك حكاية عن امرأة شكت له مسألة جنسية مع زوجها، لم نر ما يدعو إلى ذكرها هنا، لإفحاشها ولاشترأ كما فى الدلالة مع ما سقناه من الحكايات الأخرى» .

(١) هذه الحكاية والحكايات التى تليها منقولة من النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة برقم ١٩٤ وهى المجموعة التى سبقت الإشارة إليها .
(٢) كذا بالأصل .

« ثم يلي ذلك أيضا حكاية له مع جارية ، لم نشأ أن نذكرها ، لأنها أشد إغحاشا من الحكاية السابقة » .

ويحكى أن ولده اشترى لنفسه بغلا بألف درهم ، وعرضه عليه ، فقال : هذا غالى ! فراه بعض المباشرين ، فعلم منه أن عرضه وقع فيه ، فدخل معه على أبيه ، وقال : يا خوند^(١) لأى شىء رستم برد هذا البغل ؟ فقال : لأنه غالى بألف درهم . فقال : يا مولانا اشتريناه بتسعمائة وتسعة وتسعين . فقال : إن كان هكذا فما هو غالى !!

ولنا على كتاب السيوطى هذا ملاحظات :

فأولها : أننا نراجع كتاب النجوم الزاهرة الذى أحالنا عليه السيوطى ، فلا نجد فيه كلاما كالذى أورده هذا المؤلف ، من أن صلاح الدين كان يعلم من بهاء الدين قراقوش عدم الفطنة والنباهة ، ومع ذلك فقد كان يفوض إليه أمر القاهرة ، مع مشاركة بعض أولاده معه فى ذلك . . الخ ما جاء فى هذه العبارة .
والثانية : أن بهاء الدين قراقوش ، لم يكن وزيرا لصلاح الدين ، ولم يكن لذلك يحمل لقب صاحب . وهو لقب لم يلقب به رجل قبل صفى الدين ابن شكر وزير العادل

والثالثة : أن الحكاية السابعة من الحكايات التى نقلناها عن السيوطى ، تصف بهاء الدين قراقوش بالسلطان ، وفى ذلك أيضا من الغرابة والجهل بالتاريخ ما فيه . . .

(١) لفظ تركى كثير الورد على ألسنة الأمراء وغيرهم فى العصر الأيوبي ، وذلك فى مكان أخى ونحو ذلك .

والرابعة وهى الأخيرة : أن صورة الأمير بهاء الدين قراقوش فى كتاب السيوطى ، أقل شناعة من صورته فى الكتاب الذى نسب إلى ابن ممتى ، ذلك أن السيوطى حرص على أن يورد حكاياته بحيث تطابق ما وصف به بهاء الدين قراقوش ، من أنه رجل سريع الانقياد إلى الخير ، ولكنه لاحظ له من الذكاء ، أو الفهم ^(١) .
وندع كتاب السيوطى كما تركنا من قبل الكتاب الذى نسب إلى ابن ممتى ، فنجد أن من الكتب الفكاهية التى ألفت كذلك حول قراقوش كتابا عنوانه ، (الطراز المنقوش ، فى حكم السلطان قراقوش) ، وفى هذا الكتاب الأخير ، طائفة من الحكايات التى ورد بعضها فى الكتابين السابقين ، وفيه كذلك طائفة لم تذكر بهما ، وهاك أمثلة منها :

— ١ —

حكى أن جماعة من الفلاحين جاءوا إليه (إلى قراقوش) وشكوا إليه من جهة خراج القطن ، وقالوا له : يا مولانا السلطان . البرد شوش على القطن هذه السنة ، وأنت تفرج عنا وتساحنا من بعض المال .
فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

لأى شىء لما رأيتم البرد كثير ، ما زرعتم مع القطن صوف لأجل ما يدفئه ، ولكن أنتم مستقلون بالحكم والزراعة ، ولم تفتحوا أعينكم لخدمة أستاذكم . أين المشاعلى يضرب أعناق الجميع ؟ فلم يقدر أحد من جلسائه ينقم عليه ذلك . !

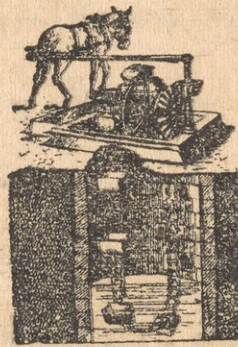
— ٢ —

ودخل عليه رجلان ، وادعى أحدهما على الآخر أنه عضّ أذنه ، فسأله عن ذلك ، فقال : بل هو الذى عضّ أذن نفسه .

(١) غير أن الحكاية الخامسة من حكايات السيوطى تدل على ذكاء قراقوش ، وهى فى الوقت نفسه مثيرة للضحك فليراجعها القارئ .

فقام السلطان ودخل الحريم ، وجلس على كرسى ، وصار يلتفت ليعض
أذنه ، فما وصل إليها ، ومال به الكرسي ، فوقع على يده فأنكسرت . فخرج وهو
بهذه الحالة ، وأمر بضرب المدعى عليه ، وقال : أنت الذى عضيت أذن الرجل هذا ،
وكسرت ذراعى زيادة على ذلك !

وخلاصة ما نلاحظه هنا كذلك ، أن هذه الحكايات تصف قراقوش بأنه
سلطان ، ولكنها تمنع فى وصفه بالبله والعتة ، بأكثر مما وصفته الحكايات التى
نسبت إلى ابن مماتى نفسه .



نظرة في كتاب الفاشوش

نصّ مؤلف الكتاب على أنه إنما «صنف كتابه لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين» . ومعنى ذلك أن الكتاب كما تدل عليه هذه العبارة يرجع تاريخ تصنيفه إلى عهد صلاح الدين ، وأن الحديث فيه موجه إلى هذا السلطان العظيم ، ضد صديقه الأمير بهاء الدين قراقوش .

وإن الباحث ليعجب مع هذا كيف ظهر هذا الكتاب في حياة صلاح الدين ، وهي فترة شهدت عظمة الأمير بهاء الدين ، وفيها ساهم هذا الرجل كما رأينا في إنشاء الدولة الأيوبية من وجوه عدة : فهو في مرة نائب عن السلطان صلاح الدين ، وهو في أخرى مكبّ على عمله في بناء الأسوار والحصون ، وهو في الثالثة ذلك الجندي الذي لا يبالي الحرب ولا الأسار ، ولا يفلّ من عزمه الحديد ولا النار ، ولا الجوع ولا الحصار ، ولا هذه المصائب التي مرّت به في عكاء بنوع خاص .

وأخرى يعجب لها الباحث كذلك ، هي عدم مطابقة النواذر التي اشتمل عليها كتاب الفاشوش ، وبعدها كل البعد عن أخلاق الأمير قراقوش ؛ فأين النقد السياسي والخلق الذي نراه في كتاب كهذا ؟ لقد كان على مصنفه أن يقع من

غريمه على مواطن الضعف في خلقه ، أو في عقله ، أو في طريقة حكمه ، ثم يأتي بالنوادر التي تصف هذا الضعف ، ليضحك الناس منه .

ولكن النوادر التي اشتمل عليها هذا الكتاب الصغير ، لا تمس جانباً حقيقياً واحداً من جوانب الأمير ، ولا تصف ناحية صحيحة واحدة من نواحي نقصه أو ضعفه . ونحن نعرف أن مما أخذ عليه مثلاً ، ميله إلى الجدل وإلى العنف ، فآين جهد الكاتب هنا في تصوير هذه الناحية من خلقه ، تصويراً يشوّه هذا الجدل ، ويبعث على السخرية منه ؟ ونحن نعرف أن مما أخذ عليه أيضاً أنه كان كثير اللجاجة والخصومة ، فلا يقرّ مبدأ المناقشة في الأمور ، ولا يحتمل الإصغاء إلى جدل من كبير أو صغير ؛ وله رأى في معاملة السوق والعامة ، هو أخذهم جميعاً بالقهر وبالقسوة ؛ وهكذا فعل بالأسرى وبالعامة الذين سخرهم في بناء الأسوار والحصون ؛ وعذره في كل ذلك هو الحرص على إنجازها في الوقت الذي أراده صلاح الدين ؛ فآين محاولة ابن ممتي في بيان هذه الطبيعة ، وآين استفادته من هذه الطريقة ؟ وآين عرضه لها في صورة تدعو إلى الزرابة ؟ وقد كان في استطاعته أن يجد في طريقة تسخير الناس مادة للهجاء والازدراء ؛ ومن يدرى لعله كان يفلح في إقناع الخاصة من الأمراء والكبراء ؛ بأنه على حق في انتقاد هذا الرجل الظالم ، حتى يردّوه عن ظلمه ، إن صحّ أنه أخذ الناس بالظلم إلى هذا الحد .

ولكن الكتاب كله على اختلاف نسخه وصوره ، ليس فيه ما يدل على شيء من ذلك . وأكثر من ذلك أن هذه الأوصاف التي وصف بها الأمير ، أشبه شيء بالصفات التي خلعها الناس على « جحا » ؛ فهي صفات يمكن أن تنطبق على كل إنسان يوصف بالشذوذ ؛ وهي في ذلك أشبه شيء بالشوب الذي يسع كل جسم

ويدخل فيه كل رأس ، وما هكذا تكون السخرية ولا النقد ؛ ولا هكذا يكون الهجاء السياسى والاجتماعى فى الشعر أو النثر .

على أن فى الكتاب فوق هذا كله نادرة أو اثنتين منسوبةتين إلى قراقوش ، حدثنا له مع جارية من جواريه ، مع أننا نعرف من تاريخه أنه كان رجلاً خصباً !

ومعنى ذلك أن مصنف الكتاب نسى حتى هذه الصفة ، التى تتصل بخلقه الأمير ، فنسب إليه عملاً لا يتفق وهذه الخلقة !

ثم فى الفترة التى عاش فيها الأمير بهاء الدين قراقوش ، وعاش الكاتب الذى صنف كتاب الفاشوش — وهى الفترة التى نعمت بالقاضى الفاضل ، والعماد الأصفهاني ، وابن سناء الملك ، ورجال هذه الحلقة ، عاش كذلك رجل أديب هو « الوهراني » ؛ أتى إلى مصر من بلاد المغرب فى طلب وظيفة أستعان فيها بالقاضى الفاضل ، ولأمرٍ ما لم يشأ الفاضل أن يعينه عليها ، فما كان من الوهراني إلا أن كتب طائفة من الرسائل اللطيفة ؛ سخر فيها من رجال الدولة الأيوبية ، وعلى رأسهم القاضى الفاضل ، وجاءت هذه الرسائل التى كتبها الوهراني مرة على شكل أحلام أو منامات ، وأخرى على شكل حكم وأمثال وحكايات ، وثالثة أجرى الكلام نفسه على لسان بغلته التى كان يركبها الخ .

وهكذا استطاع الكاتب المغربى أن ينال من سادة مصر وكبرائها ، بأسلوب أقل ما يوصف به أنه أسلوب لطيف رشيق ؛ على حين عمد الكاتب المصرى إلى أسلوب آخر بسيط هو أسلوب « التشنيع » ؛ وسنعرض فيما بعد لشرح هذا الأسلوب الأخير ، ونوضح قيمته بالقياس إلى غيره من الأساليب الأخرى .

وأيّاً ما كان الأمر ، فالذى نرجحه فى كتاب الفاشوش أنه لم يعمل عمله وقت ظهوره على عهد صلاح الدين ، فلا أثر هذا الكتاب فى نفس السلطان العظيم ، ولا أراح هذا السلطان المسلمين من بهاء الدين ؛ ولا عوّل على هذا الحادث الأدبى رجلٌ كالقاضى الفاضل ، ولا رفع السلطان يد قراقوش من العمل الذى كلفه إياه .

أما الزمن الذى أرجح أنه أفاد من كتاب الفاشوش فهو الزمن الذى تلا موت الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ؛ أعنى فى الفتنة التى حدثت على عرش العزيز وتولية ابنه المنصور ؛ وكان المنصور صبياً ، فاحتاج الأمر إلى أن يكون له أتابك ؛ وكان العزيز نفسه قد أوصى أن يكون قراقوش هو الأتابك ؛ غير أن هذا الأمر لم يصادف هوى من نفوس كبار الجند ، وإذ ذاك استدعوا الملك الأفضل — أخا الملك العزيز — وكان ابن مماتى ممن اشتركوا فى استدعائه يومئذ . والظاهر أنه هو الذى وصف قراقوش فى مجلس من مجالس المؤامرة التى دُبرت ضده ، بهذه العبارة ، وهى قوله : « إنه مضطرب الرأى ، ضيق العطن » . وهو وصف ذكرته المراجع التاريخية الكبرى وإن لم تنسبه إلى قائله .

ومعنى ذلك أن كتاب الفاشوش هو من وحى رجل كابن مماتى فى ظرف من الظروف الخاصة ، وأن السياسة أفادت منه كثيراً فيما بعد .

ومن أجل ذلك لا أرانى أميل إلى الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ كازانوفا من أن كتاب الفاشوش « يعتبر أثراً لحادث خطير ، هو سقوط الفاطميين ، وأنه يعتبر المظهر الأخير ، لبغض مصر وأهلها لكل فاتح لبلادهم ، وهو بغض أيقظه فى نفوسهم انهيار الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، التى أعادت الأمر فيها إلى بنى العباس » .

والظاهر أن الذي شجع الأستاذ كازانوفا على هذا الرأي أمران : —

أولهما : أن بالصعيد جهات مثل قوص وأسيوط (وهى المدينة التى ولد فيها ابن مماتى) كان أهلها يستمسكون بمذهب الدولة الفاطمية ، يدل على ذلك بعض النقوش التاريخية التى نراها فى طائفة من المساجد ، يرجع تاريخ إنشائها إلى أوائل العصر الأيوبي .

وثانيهما : أن الفاطميين (عدا الحاكم بأمر الله) عرفوا بالتسامح الدينى الشديد مع المسيحيين ، ومع غيرهم من الطوائف الدينية الأخرى ؛ وذلك بخلاف بنى أيوب ، فإنهم لم يكونوا متساهلين مع هذه الطوائف ؛ بل قسوا فى أكثر الأحيان عليها ، وأجبروا الكثيرين منهم على الدخول فى الإسلام .

فلعله من أجل ذلك ظن الأستاذ الباحث أن ابن مماتى كان من أولئك الموتورين من دولة صلاح الدين ، وأنه كان يضمر لها الحقد والكراهية فى قلبه ؛ برغم أن هذه الدولة أكرمته وأعانتته ، ثم ما زالت به حتى أسندت إليه منصبا من أكبر مناصبها .

ثم من أين أتى الظن بأن أهل مصر نظروا إلى صلاح الدين على أنه هادم لقوميتهم ، محطّم لمصريتهم ، راجع بهم التمهقري ، إلى حيث يكون قطرهم تابعا للخلافة العباسية ؟

من أين أتى الظن بأن أهل مصر نظروا إلى الرجل هذه النظرة ؟ وهم يعلمون عن صلاح الدين أنه لم يفعل أكثر من أن دعا للخليفة السنى على منابر القاهرة وغيرها من الحواضر الإسلامية ، وأنه بعدُ مستقل كل الاستقلال عن هذه

الخلافة العباسية السنية . وأكثر من هذا وأبعد منه خطراً في رأى مصر وأهل مصر ، أنهم نظروا إلى صلاح الدين على أنه بطل المسلمين ، وصاحب الفضل الأكبر في إنقاذهم من أيدي الصليبيين ، في وقت كانت فيه كل من الخلافة العباسية العتيقة في بغداد ، والخلافة الفاطمية الفتية في مصر ، عاجزة كل العجز عن أن تدرك عن نفسها وعن الإسلام خطر الهرج .

وأكثر من هذا كله دلالة على بُعد الفكرة التي ذهب إليها الأستاذ كازانوفا ، أن المذهب الشيعي نفسه كان طارئاً على مصر ، دخلها غريباً ، وخرج منها غريباً ، ولم يلبث أهل مصر بشيء من الجهد أن عادوا سراعاً إلى مذهب أهل السنة ؛ وهو المذهب الذي قدروه وأحبوه ، وبقى معهم إلى يومنا هذا .

ومهما يكن من أمر هذا الكتاب ، ومهما تكن البواعث التي دعت إلى تصنيفه إذ ذاك ، ومهما تكن الطرق التي استفادت السياسة بها منه ومن مُصنّفه ، فالذي حدث هو أن هذه النوادر القليلة المضحكة ، نالت من سمعة الأمير بهاء الدين قراقوش ، وغضّت حقيقة من شأنه ، وغيّرت من رأى الناس فيه ، وفي عقله وخلقه . وسواء أكان هذا التغيير الذي حدث في رأيهم ، وقع في حياة صلاح الدين ، أم وقع بعد موته ، فإن من الحق لصاحبه الأمير أن ينتصف لنفسه ، وأن يرفع دعواه إلى محكمة التاريخ الصحيح . وقد فحص التاريخ نفسه هذه القضية ، وأن له أن ينطق بالحكم الذي وصل إليه .

حكم التاريخ

سمعت أيها القارئ ، قصة هذا الأمير العظيم بهاء الدين قراقوش ، ونظرت إلى صحيفة أعماله ؛ ثم استعرضت ما جاء في كتاب ابن مماتي من حكايات ، أريد بها ذمه ، والسخرية منه ، والزراية عليه ، وليس شك في أنك استمتعت بما في هذه الحكايات القصيرة كلها من لذة . ولكنك في الوقت نفسه وققت تحكم على هذا الأمير ، فلم تتردد في أن تحكم له بالعظمة والصبر والجلد والأمانة وعلو الهمة ؛ وذلك ما اعترف به السلطان صلاح الدين ، فكان كثيرا ما يثنى على همة صاحبه ، وينظر إليه على أنه نعمة من نعم الله على دولته .

وذلك ما شهد به القاضي الفاضل ؛ فكان لا يدع رسالة يأتي فيها ذكر قراقوش ، حتى يملأها مدحا وثناء عليه ، وعلى جده ونشاطه وصبره وإخلاصه وأمانته .

ثم ذلك ما عرفه الصليبيون ، فقالوا عن شخصية بهاء الدين قراقوش :
« إنها شخصية رجل محارب ، له روح غريبة ، أدهشت الصليبيين ، وأثارت إعجابهم بشجاعة صاحبها ، ومهارته وقدرته ، حتى نظروا إليه على أنه جندي وقديس في وقت معا » .

وانظر إلى كلمة العباد الأصفهاني في وفيات سنة سبع وتسعين وخمسة ، وهي السنة التي مات فيها بهاء الدين قراقوش حيث قال :

وفيهما توفي الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو من القدماء الكرماء ، وشيوخ الدولة الكبراء ، أمير الأسدية ومقدمها ، وكريمها ومكرمها .

ولم أر غيره خصيا لم تقاومه الفحول ، ولم يؤثر في محال مآثراته المحول ، وله في الفتوحات والغزوات ، مواقف معروفة ، ومقامات موصوفة ؛ وهو الذي احتاط على القصر ، حين استتبت على متوليه أسباب النصر ، وذلك قبل موت العاضد بمدة .

ولما خطب لبنى العباس بالديار المصرية ، تسلم القصر بما فيه ، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه ، وتولى عمارة الأسوار الحبيطة بمصر والقاهرة ، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة .

وكان معاذ الالتجاء ، وملاذ الارتجاء ، غير أنه نسب إلى اللجاج لشدة ثباته ، وفراط جموده ، ولا يكاد يعجم لصلابة عوده . . . الخ .

ولعل في العبارة الأخيرة ، وهي وصف العباد الكاتب له باللجاج الذي هو شدة الخصومة ، وبالثبات والعناد والصلابة والبعد عن المرونة ، ما يوضح لنا شيئاً من أخلاق الأمير بهاء الدين قراقوش ، ويبين السبب الذي من أجله لم يكن محبباً إلى بعض النفوس ، وهو أنه كان رجلاً عنيفاً في خصومته ، لا يدارى ولا يداهن ، ولا يعالج الأمور برفق ولا مواربة . واجاد من الناس يخافونه ويرهبونه ، إلا أنهم يكرهونه ، ويضيقون به ، ويسطون ألسنتهم فيه ، حتى إذا أفل نجمه ، أو فلت شوكته ، أضعفت قوته ، انقلبوا عليه ينهشون

عرضه ، ويشوهون سمعته ، ويُعَفُّون على آثاره ، ويودون لو استطاعوا أن يمسخوا اسمه من التاريخ .

وبعد ، فقد فرغنا من بحث هذه القضية من قضايا التاريخ ، وشعرنا بأننا نجحنا في إنصاف هذا الرجل العظيم بهاء الدين قراقوش ، وذلك من غريمه الذى كتب فيه هذه القصص ، وهو ابن ممتى .

وبحسبنا هذا البحث فى الكتاب من الناحيتين التاريخية والعامة ، ولنتقل من ذلك إلى البحث فى الناحية الأدبية . والذى يعنينا من هذه الناحية هو موضوع هذه النوادر ؛ والموضوع هنا هو السخرية من شخص ما ، كائننا من يكون . ولكن ما نوع هذه السخرية التى نراها ؟ أهى سخرية من النوع الراقى ؟ أم هى سخرية من نوع غير راقى ؟ ذلك ما نريد أن نتعرض لبحثه باستيفاء فى الفصل الآتى .

السُّخْرِيَّةُ فِي الْأَدَبِ

أنواع السخرية في الأدب

— ١ —

نريد في هذا الفصل أن نتحدث عن بواعث السخرية أولا ، وعن ضرورها في الأدب ثانيا ، وعن الفروق الواضحة بين كل ضرب منها والأضرب الأخرى ؛ فإذا فرغنا من ذلك تحدثنا في كلمة مستقلة عن السخرية في الأدب العربي خاصة ؛ فإذا انتهينا من ذلك انتقلنا منه إلى الحديث عن السخرية في الأدب المصري ، كما تظهر لنا هذه السخرية في الكتاب الذي بين أيدينا — وهو كتاب ابن ممتي — بوجه أخص .

قد يغضب الأديب ويشور ، وتشتد الخصومة بينه وبين من أثار في نفسه هذه الخصومة ؛ فيعمد أحيانا إلى السباب ، ينال به من خصمه ، ويشفي قلبه من هذا الحقد الذي يشعر به نحوه ؛ وهذا ما يسمى في الأدب بالهجاء .

وقد يغضب الأديب ويشور ، ويؤثر أحيانا أن يخفي في نفسه الغضب والثورة ، ويعمد إلى ضبط أعصابه ، وإلى تكلف الضحكة أو البسمة ، فينال

من خصمه بطريقة أخرى ، هي هذه الطريقة التي يعدل فيها عن الهجو والسباب ، إلى لون آخر من ألوان الأدب ، يسمى السخرية .

ومعنى ذلك أن الهجاء أدب الغضب المباشر ، والثورة المكشوفة ؛ وأما السخرية فأدب الضحك القاتل ، والهزؤ المبني على شيء من الالتواء أو الغموض . ولا تسلب بعد عن أسباب الغموض في بعض أنواع السخرية ، فهي كثيرة : منها حرص الأديب على حياته أحيانا ، ومنها قدرته على إخفاء غضبه أحيانا ، ومنها علو كعبه في العلم والثقافة ؛ والعلم يشحذ الذكاء ، والذكاء يسعف صاحبه في هذه المواطن ؛ فترى الأديب ينال من خصمه بطريقة ملتوية تقتله ، بأشد مما لو ناله بطريقة ساذجة ؛ وبين الهجاء والسخرية وشائج شتى تجعل كل واحد منهما (على كثرة الفروق بينهما) قريبا من الآخر ، بحيث يمكن أن ننظر إليهما على أنهما ينبعثان من نفس واحدة ، هي النفس الحانقة ، أو صادران عن هدف واحد ، هو الرغبة في الإيذاء والانتقام .

أما الأمور التي تبعث على السخرية وحدها ، فتوشك أن تتلخص كلها في أمر واحد ، هو « الغرابة » ، كرؤية الأقزام في بلاد العماليق ، أو رؤية السود في بلاد البيض ، أو كرؤية إنسان ما وهو يتردى في حفرة عميقة على غرة منه ، وهكذا .

والضحك من الناس في كل حالة من هذه الحالات ، قد يكون خطأ في حقيقة الأمر ؛ فليس للعلاق ذنب في طوله ، ولا للأسود ذنب في سواده ؛ بل إنه أولى أن يثير فينا إشفاقا عليه ، ورثاء لحالته ؛ ولكن الذي يضحك الناس من كل ذلك هو الغرابة ، والغرابة هنا معناها انعدام التكيف في الحياة الواقعة .

وقد تزيد هذه الغرابة التي تشير فينا الضحك إلى أن تصل أحيانا إلى درجة الشذوذ ، أو الوضع المقلوب ، أو البعد عن الطبيعة ، وذلك مثل أن ترى رجلا يتشبه بالنساء ، أو امرأة تتصرف تصرف الرجال ، أو شيخا يتصايب ، أو صبيا يتكلف أخلاق الكبار ، أو كأن ترى حاكما يركب رأسه ، أو جاهلا يهرف بما لا يعرف ، أو قسيسا يتدلّه في الحب ، أو مجوزا تلمس صبيا لها ، أو بخيلا يبالغ في الحرص على المال ، أو جبانا يسرف في الحرص على الحياة .

والسخرية في كل هذه الحالات ، قائمة على فكرة المقابلة بين الحق والباطل ، بين الصدق والكذب ، بين الصحة والزيف ، بين الكمال والنقص ، بين الطبع والتكلف ، أو بعبارة أخرى مختصرة : بين ما يكون ، وما ينبغي أن يكون .
وللسخرية نفسها في الأدب العربي ، كما في الآداب الأوروبية ، ألفاظ كثيرة ، لا يدل كل واحد منها على نفس المعنى الذي يدل عليه الآخر . ولا بأس أن نقف هنا عند طائفة من هذه الألفاظ نحدد مدلولها ، ونوازن بينها ، ونعتمد في هذا كله على مجرد الاجتهاد في الرأي . وقصدنا من ذلك كله أن نعرف في نهاية الأمر أين نضع السخرية المصرية ، التي رأينا مثلا منها في الكتاب الذي بين أيدينا .

ومن هذه الألفاظ التي نقف عندها ، لفظا « المزاح » أو « الهزل » Comique ، ولفظا « الفكاهة » أو « التندر » Humour ، ولفظا « اللذع » أو « التهكم » Ironie .

فأما المزاح أو الهزل ، فالغاية منه دائما هو إثارة الضحك ، وليس من غايته مطلقا أن يكشف عن حقيقة من حقائق النفس أو الخلق . وهو ، أي الهزل ، على

ضربين : فمنه ما هو خفيف ومقبول ، ومنه ما هو ثقيل ، وليس إلى احتماله من سبيل . ولعل هذا الأخير هو ما يسمى في الأدب الفرنسى باسم La Grosse Plaisanterie .

والمزاح أو الهزل هو آلة الدهماء في سخرهم ، وأداة العامة في ضحكهم وازدراءهم ، وهو لهذا لا يعتمد على علم أو ذكاء أو ثقافة ؛ لأن لغة الشعب نفسه لا تقوم على علم أو ذكاء أو ثقافة . والشعب حين يلهو بشخص أو جماعة يعتمد في لهوه دائماً على السذاجة والصراحة ، ويلقى في وجوه من يلهو بهم طائفة من النكات المكشوفة ، ويرميهم بقوارص من الكلم الشديدة ، لاتسعه في ذلك فطنة المتقنين ، ولا ذكاء المستنيرين . وليس بُدٌّ لمن يريدون أن يكتبوا أدبا ساخرا للشعب ، من أن يسلكوا في أدبهم هذا الطريق ، الذى يفهمه الشعب .

ولعل من الأمثلة على هذا النوع الساذج من أنواع السخرية في الأدب المصرى الحديث ، ما نراه في مجلات «أبوظارة» ، «والمسامير» ، «والكشكول» ، «وآخر ساعة» . وقد يكون من الأمثلة على هذا النوع الساذج من السخرية في الأدب الفرنسى ، تلك القصص التى أطلق عليها اسم *Fabliaux* وهى قصص شعرية صغيرة ، ظهرت فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، ونسبت إلى كتاب مجهولين ، ولم يكن الغرض منها سوى النيل من الأشخاص الذين كتب فى حقهم هذا الأدب البذىء .

أما أدبنا العربى القديم ، فهو كغيره من الآداب الأوربية القديمة ، مزدحم بهذه النماذج البذيئة من الأدب المقذع ، والسخرية المريرة ، وبنوع خاص فى الأوقات التى يسيطر فيها روح الشعب على الأدب ، والشعب نفسه قليل الحظ

من التهذيب والتثقيف ، وإذا غلبت روح الشعب على الأدب ، شاع فيه ميل إلى الإيذاء والتجريح ، كما نرى ذلك واضحاً في القرن الثاني للهجرة ، وهو القرن الذي شهد أكبر عاصفة هجائية مرت بالأدب العربي ، ونعني بها المعركة التي دارت بين فحول الشعراء كالفرزدق ، وجريير ، والأخطل . وسنعود إلى الكلام على ذلك عند ما نتحدث باختصار عن بعض الأطوار التي مرَّ بها هذا الهجاء العربي .

وأما النوع الثاني من السخرية وهو الفكاهة أو التندر Humour فليس الغرض الأساسي منه هو الإضحاك ، وإن أضحك فلأنه مضطر إلى هذا الإضحاك ؛ وهو استعداد في الأديب الذي ينتقد الناس في شيء من التحفظ والحياء ؛ أو هو قدرة على كشف النفس البشرية في وضوح وجللاء ؛ ثم هو ضرب من الرثاء لأخطاء الفرد والمجتمع ، وطريقة للتنفيس عن الصدور التي شحنت غيظاً من الفرد ومن المجتمع . ولكن هذا النوع من السخرية لا يقوم على الغموض والإبهام ، وإنما يقوم على مهارة الأديب وذكاؤه وحضور بديهته وغير ذلك من الأمور التي لا يحسن الشعب نفسه شيئاً منها .

ثم إن السخرية التي من هذا النوع ، كما تكون سخرية الفرد ، وكما تكون سخرية بالجماعة ، فكذلك تكون سخرية بالفكرة ، وتكون سخرية بالقصيدة . ومن الأمثلة على التندر بالفكرة ، ما فعله « فولتير » في رواية « كانديد » *Candide* ، وهي حكاية عن شخص بهذا الاسم ، قام بسياحات كثيرة لاحظ فيها معائب الأفراد والجماعات ، وكان يقول مع ذلك أنها ليست معائب ، وإنما هي حسنات ، لأن أستاذه *Danglos* علمه أن كل شيء في الدنيا حسن ، وأنه ليس

في هذا العالم كله شيء يوصف بأنه قبيح ، وأنه لهذا «على خير حال ، في خير عالم ممكن» .

وبهذه الطريقة اللطيفة أخذ فولتير ينقد جماعة الفلاسفة المتفائلين ، الذين يرون أن العالم كله خير ، كما راح يندد بأفكارهم ، ويسخف عقولهم ، ويزري بأحلامهم .

والأمثلة على هذا النوع من السخرية كثيرة في الأدب الإنجليزي ، وخاصة في أدب رجلين من أعلام هذا الأدب ، هما «سويفت» Swift وفيلدينج Fielding . ولهذا الأخير بنوع خاص رواية بعنوان Jonathan Wild The Great هي قصة رجل لص انتهت حياته بالشنق . وفيها يندد الكاتب بحكومة من حكومات إنجلترا ، هي حكومة «ولبول» Walpole ، وينقد مسلكه ومسلك زوجه البغي ، ويرميها بتهمة العبث بمصالح الدولة ، وبتهمة استغلال مركزها كزوجة لرئيس الوزراء ، في سبيل الوصول إلى أغراضها السيئة .

وهنا يميز الكاتب الإنجليزي بين نوعين للعظمة : هما العظمة الصحيحة ، والعظمة الزائفة ، فيقول أن الأولى هي التي تعتمد على أسس ثابتة من الخير ومن النفع ، وترمي إلى صلاح الإنسانية وخلصها من كل شر . ولكن الناس مع هذا يخلطون بين هذين النوعين ، ولو كان صحيحا ما زعمه بعضهم ، من أن من العظمة ما يعتمد على الشر ، لوجب أن ننظر إلى الإسكندر الأكبر وإلى قيصر وإلى نابليون ، كما ننظر إلى القرصان واللصوص والسفاكين وقطاع الطرق .

فنقول عن أولئك الملوك إنهم عظماء ، لأنهم بنوا وشيدوا ونشروا حضارات ، وغيروا وجه الحياة ، وأعانوا على تقدم الإنسانية ، ولكن لأنهم

خربوا ودمروا ، وثُلُّوا عروشا ، وأسقطوا دولا ، وأذلوا ممالك ، وأراقوا دماء .
وليس فرق بين « فيلدنج » هذا وبين « سوفت » صاحب قصة « روبنسن
كروزو » ، إلا أن الأول متفائل ، لا يفقد الأمل في إصلاح الجماعة ؛ أما الثاني
فأدنى إلى التشاؤم ، لأنه مكثف بالسخرية من الجماعة ، وإظهار الرثاء لها ،
والإشفاق من فسادها ؛ يظهر لنا ذلك كله من كتابه « رحلات جوليفرز »
Gullivers' Travels وفيه نقد للمجتمع على لسان أقزام عرفوا كيف يضعون
أيديهم على مساوئهم .

أما أدبنا العربي ففيه أمثلة كثيرة أيضا من السخرية التي من هذا النوع ،
منها : ما حكى عن الجاحظ من أنه ألف كتابا في نوادر المعلمين ، وما هم عليه من
الحق والغفلة ؛ ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع الكتاب ، ثم عاد إلى كتابته ،
وأخبر بذلك عن نفسه ، قال :

دخلت يوما مدينة ، فوجدت فيها معلما في هيئة حسنة ، فسألت عليه ،
فردّ عليّ أحسن رد ، ورحّب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فإذا
هو ماهر فيه ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو
كامل الأداة . فقلت : هذا والله مما يقوى عزمي على تقطيع الكتاب .

ثم كنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوما لزيارته ، فإذا الكتاب مغلق ،
ولم أجده . فسألت عنه فقيل : مات له ميت ، فحزن عليه ، وجلس في بيته
للغزاء . فذهبتُ إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إليّ جارية وقالت :
ما تريد ؟ . قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : بسم الله .

فدخلت إليه ، وإذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم

في رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر . . . الخ .
ثم قلت له :

هذا الذي توفي ولدك ؟ قال : لا

قلت : فوالدك ؟ قال : لا

قلت : فأخوك ؟ قال : لا

قلت : فزوجتك ؟ قال : لا

قلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى !!

فقلت في نفسي : هذه أول المناحس .

وقلت له : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها .

فقال : أتظن أنى رأيته ؟

قلت : وهذه منحسة ثانية !

ثم قلت : وكيف عشقت من لم تره ؟

قال : اعلم أنى كنت جالسا في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت
رجلا عليه بُرد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردى على فؤادى أينما كانا (الآيات)

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها

هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت إنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت الكتاب ، وجلست في الدار !

فقلت : يا هذا ، إني كنت ألفت كتابا في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه . والآن قد قويت عزى على إبقائه ، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله . !

من هذه الأمثلة السابقة ، نرى أن صاحب هذا النوع الثانى من السخرية ، وهو الفكاهة أو التندر ، ضاحك لا بغير قصد ، وإن كان فى ضحكه شىء من المرارة ؛ مرح بغير قصد ، وإن أخفى وراء مرحة وهجاً من نار البغض والذرية ؛ من عادته أن يمنح حماقات الناس ابتسامة خفيفة ، وهى فى الوقت نفسه مؤذية كل الأذى لأصحاب هذه الحماقات السخيفة ، وهو - أى صاحب الفكاهة والتندر - يعمد فى فكاهته دائماً إلى الواقع ، لا ينتقل منه إلى الخيال ؛ أو بعبارة أخرى لا يعنيه كثيراً أن يقابل فى سخريته بين الصور الواقعية والصور المثالية ؛ وهو فى هذا مخالف كل المخالفة لصاحب النوع الثالث والأخير من أنواع السخرية ونعني به «الذع أو التهمك بطريق التورية» Irony . والسخرية التى من هذا النوع الأخير تقوم على الغموض والمواربة ، أو تقوم على مانسميه فى البلاغة العربية بالتورية ؛ ثم إنها تقوم كذلك على فكرة المقابلة بين الواقع وبين المثل العالية .

ولذا كان هذا النوع من أرق أنواع السخرية لأنه أصعب هذه الأنواع السابقة منالاً ، وأدومها أثراً ، وأطولها بقاءً ، وأكثرها قياماً على الثقافة والعلم ، وانقلاباً بالناس من الحقيقة إلى الخيال ، ومقابلة فى أذهانهم بين الواقع والمثال ؛ وصاحبه ليس هادئاً دائماً ، ولا باسماء دائماً ، ولا متكلفاً للمرح دائماً ؛ بل كثيراً

ما يكون عنيفا ، قادرا على إخفاء هذا العنف ، خائفا ، وإن حاول أن يقلل من شأن هذا الخوف ، شديد المراقبة للعيوب ، كثير التهافت على ذكر المساوىء ، يغذى في نفسه هذا الميل عوامل شتى : من البغض ، ومن الحقد ، ومن الذعر ، ومن السخط ، ومن التقرز ، ومن الاحتقار الصارخ للفرد والمجتمع^(١) .

ومع ذلك فالنوع الثانى من أنواع السخرية ، وهو الفكاهة أو التندر Humour أدنى إلى الأذواق عامة ، وأعلق بالنفوس عامة ، وصاحبه محبوب من الناس كافة ؛ لأنه يستطيع بابتسامة هادئة أن ينال غرضين اثنين فى وقت معا ، وهما : غرض النقد والرثاء من ناحية ، وغرض التسلية وإضحاك الجماهير من ناحية ثانية .

أما النوع الثالث — وهو اللذع أو التهمك ، ففيه تلاعب بالألفاظ ، وفيه ميل إلى استخدام المواربة وأسلوب الذم بما يشبه المدح وغيرها من الأساليب المعروفة فى البلاغة . ثم هو يعقول العلماء أشبه ، وإلى نفوسهم وأمزجتهم أقرب . ولذا يكثر هذا النوع الثالث من أنواع السخرية فى عصور الأدب العقلى ، كما حدث فى الأديين الإنجليزى والفرنسى فى القرن الثامن عشر ، وهو القرن الذى شاع فيه هذا اللون من ألوان الأدب ؛ كما يكثر فى فترات الصراعين السياسى

(١) وهناك ضرب من ضروب التهمك أو التورية Irony يطلق عليه اسم Sarcasm باللغتين الفرنسية والإنجليزية . والفرق بينه وبين التهمك هو أن التهمك يتناول السخرية بالحوادث Events وأما الثانى فهو سخرية تتناول الأحاديث Speeches . فإذا سمعت قولهم (سخرية القدر) فاعلم أنها بعض المقصود من كلمة التهمك ، لأنها سخرية من الحوادث التى يجريها القدر . أما السخرية التى تجرى دائما فى الأحاديث العامة والخاصة ، فهى بعض ما يعنيه الأوروبيون بلفظ « اللذع Sarcasm » . وفى هذا الأخير مرارة هى كل ما فى قدرة الأديب أن يشيعها فى الأدب ، وفيه لهيب هو كل ما فى وسعه أن يحرق به الخصم ، وعنصر الغموض فيه أقل منه فى التهمك أو التورية .

والفكرى ؛ لأنها فترات تميل إلى العنف وإلى الخوف ، الذى يبدو أحيانا من جانب الأدباء ، حرصا منهم على حياتهم ، أو ضنا بكرامتهم أن تذال على أيدي الجبابة من ذوى البطش ، الذين تؤذى نفوسهم هذه السخرية .

ويقل هذا النوع الأخير وهو التهم ، حتى ليكاد يختفى فى الأوقات التى يسيطر فيها الخيال أو العاطفة على الأدب . ولذلك لم يكن ملأما للأدب الرومانتى فى إنجلترا وفرنسا فى القرن التاسع عشر ، كما لم يكن يلائم الأدب الكلاسيكى فى إنجلترا وفرنسا فى القرن السابع عشر ؛ وإنما كان ملأما للأدبين الإنجليزى والفرنسى ، كما قلنا فى القرن الثامن عشر . ويكفى أن نذكر من أدباء هذا القرن فى إنجلترا رجلا مثل شارلز ديكنز Charles Dickens وهو من برع فى جميع أنواع السخرية ، وخاصة منها اللذع Sarcasm والتهم بطريق التورية Irony ، ولعل من أشهر كتبه فى السخرية كتابه Pickwick Papers . وهو عبارة عن مجموعة من القصص ، تعالج كل قصة منها نقصا فى المجتمع ، وتعتمد فى ذلك على اللغة الدارجة التى آثر استعمالها هذا الكاتب اللبق . ثم إن الشخصيات التى اصطنعها فى كتابه موصوفة بالتناقض إلى حد المبالغة . فالسمين من هذه الشخصيات التى أتى بها ، سمين فوق ما يجب ، والنحيف منها نحيف أكثر مما يجب ، والسفيه منها سفيه أكثر مما ينبغي ، والحليم حليم أكثر مما ينبغي وهكذا . ثم لا يكتفى ديكنز بكل ذلك ، حتى يجرى على السنة أشخاصه فى هذه القصص التى كتبها ، أقوالا بلهاء ، وأفعالا تثير الضحك والثناء . وبهذه الطريقة البسيطة أخذ يعلم الناس دروسا كثيرة فى الحياة والأخلاق . والمهم أن من يقرأ أدب ديكنز يشعر شعورا عاما بأن روحه فى الكتابة أميل إلى التندر Humour

ولكن الطريقة التي سلكها في أدبه أميل إلى التورية المضحكة ، أو التهمك
الباسم Comic irony .

أما في الأدب العربي ، فالذع أو التهمك بالتورية كثيرا ما يرد في أحاديث
العامة والخاصة . ولو عرف الأدب العربي فن القصة كما ينبغي ، لبرع براعة
نادرة في هذا النوع الأخير من السخرية . ولذا لا نجد هذا النوع واضحا كل
الوضوح في أدبنا العربي . اللهم إلا إذا نظرنا إلى قصص كليلة ودمنة على أنها
كتبت للسخرية بحكومة المنصور العباسي ، وهو الخليفة الذي اضطغن عليه
ابن المقفع صاحب هذه القصص ، وانتقد مسلكه صراحة في كتاب له اسمه
« الصحابة » ، وانتقده خفية وتعريضا في كتابه « كليلة ودمنة » . وسنعود
إلى الإشارة إلى هذه المسألة مرة أخرى عند ما نتحدث بإيجاز عن الهجاء
والسخرية في الأدب العربي .

والخلاصة أننا نستطيع على كل حال أن نميز تميزا واضحا بين لونين أو ثلاثة
من ألوان السخرية في الأدب عامة .

أولها : السخرية الشعبية ، وهي التي تعتمد كما قلنا على البساطة والسذاجة ،
كما تعتمد على الجرأة والصراحة ، وفيها يستطيع الأديب أن يلقي في وجوه
الذين يسخر بهم ، بقطع من النكات المريرة ، لا يصطنع فيها اللغة التي تحتل المعاني
الكثيرة ، كما نرى ذلك في التورية ، وإنما يصطنع فيها اللغة الجارحة والعبارات
التي لا يجد الجمهور مشقة كبيرة في فهمها ، وفهم الغرض الذي قيلت من أجله .
والثانية : السخرية المهذبة وهي على ضربين : ضرب يعتمد على الذكاء

والفطنة ، والصراحة والجرأة ، وهو التندر Humour . وضرب يعتمد على هذه
الأمور كلها ، وعلى العلم والثقافة ، وعلى الغموض والتورية ، وهو اللذع Irony .
ومعنى ذلك أن الأول أدنى إلى الصراحة ، والثاني أقرب إلى الابهام ، وأن الأول
يكثر في عصور الحرية السياسية أو الفكرية ، والثاني لا يكون إلا في عصور
البطش أو الكبت أو التضيق .



السخرية في الأدب العربي

— ٢ —

في الكلمة السابقة تحدثنا عن السخرية عامة ، والآن نتحدث عن تطور الهجاء والسخرية في الأدب العربي خاصة . وسنتقل من هاتين الكلمتين الصغيرتين إلى بحث السخرية المصرية كما تبدو في كتاب ابن ممتى بوجه أخص . ونحن نعرف أن الهجاء العربي ظهر بظهور الشعر العربي في الجاهلية ، دعت إليه أمور كثيرة ، يظهر أن من أهمها « النزعة القبلية » . ومن ثم غلب على الهجاء العربي الجاهلي هذه النزعة ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن الهجاء الفردي لم يكن له وجود ما في الشعر الجاهلي ، بل إن هذا الهجاء الفردي أيسر ما تدعو إليه الحياة نفسها في كل زمان ومكان . وإنما الهجاء القبلي كان أسيروا أشهر ، وكانت العناية به أشد وأظهر ، لأن الذي يعرفه العلم إلى يومنا هذا هو أن حياة العرب قبل الإسلام كانت تخضع لنظام القبيلة ، وأن حياة الفرد في هذا النظام كانت أشبه بحياة النحلة في جماعة النحل .

سئل أعرابي من عشيرة : لم كثر الخزم فيكم ؟ فقال : نحن ألف رجل ،

وفينا حازم واحد ، كلنا نطيعه ، فكأننا ألف حازم . ومعنى ذلك أن العرب لا تخضع إلا لنظام القبيلة ، ولا تدين بالطاعة إلا لشيخ القبيلة ، مصلحة كل فرد هي مصلحتها ، والضرر الذي يلحق بها إنما يصيب في الواقع كل فرد منها . ولقد ظل العرب حتى بعد ظهور الاسلام ، يحتفظون لأنفسهم بهذا الشعور القبلي الذي ألفوه قبله .

قيل إن قوما من بني ذهل بن شيبان ، أغاروا على رجل من بني العنبر ، فأخذوا منه ثلاثين بعيرا ، فاستنجد الرجل بقومه من بني العنبر ، فلم ينجده أحد منهم ، فأتى قبيلة أخرى هي قبيلة بني مازن ، فركب معه نفر منها ، واستخلصوا له من بني شيبان مائة بعير ، ودفعوها إليه ، فرجع الرجل إلى قومه يعيرهم بذلك في أبيات له مشهورة ، تمنى فيها على نفسه أنه كان رجلا من بني مازن لا من بني العنبر ، فقال :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لوثه لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا

ثم انتقل الشاعر إلى ذم قومه ، والسخرية منهم سخرية لاذعة حقا ، فقال :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشرف في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل سوء إحسانا
كان ربك لم يخلق لخشيته	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شئوا الإغارة فرسانا ورؤكبانا

فانظر إلى هذه الأبيات الأخيرة كيف تصور لنا حياة جاهلية صحيحة ،
وشعورا جاهليا صحيحا ، وخلقاً جاهليا حقيقيا ، هو خلق أدنى إلى الشر ، وأبعد
عن هذه التقوى التي أتى بها الإسلام ، والتي صورها هذا الشاعر الجاهلي
في شعره تصويرا سيئا ، بأن جعلها تُضعف المقاومة في النفوس ، وتقتل الشر من
القلوب ، وما قيمة العربي إذا ضعفت فيه قوة المقاومة ، وقل فيه عنصر الشر .
وهذه الأبيات الشعرية السابقة هي « لقريط بن أنيف » . وكان شاعرا
إسلاميا ، لم يزل يحتفظ بالهوى الحقيقي لحمية الجاهلية .

وتم أبيات مشهورة لشاعر آخر اسمه « النجاشي » في ذم بني العجلان :
إذا الله جازى أهل ثؤم ورقة فجازى بني العجلان رهط ابن مُقبل
قُبَيْلَةٌ لا يَغْدِرُونَ بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يَرِدُونَ الماء إلا عشيَّة إذا صدر الوراد عن كل منهل
ومعنى هذه الأبيات أن بني العجلان كانوا يستحقون مدح الشاعر وثناؤه ،
لو أنهم كانوا قوما غلاظا شدادا ، يميلون إلى الظلم ، بل يفخرون أنهم قادرون
عليه . وتدلنا هذه الأبيات كذلك على أن الشعور بالشخصية أو الفردية لم يكن
مما يصدر عن شاعر جاهلي الروح أو الخلق أو الطبيعة . وأمثال هذه الأبيات
كثيرة في الشعر الجاهلي والإسلامي ، وكلها تدل دلالة واضحة على هذا الاتجاه .
والواقع أنه بظهور الإسلام ، حاول الهجاء أن يتخذ شكلا تُنسى فيه
العصبية الجاهلية بعض النسيان ، ويحل محلها النزعة الفردية ؛ وخاصة بعد
خصومة قريش للنبي ، وانقسام الشعراء أنفسهم إلى معسكرين ، فشعراء يمدحون
قريشا ويذمون الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وشعراء يمدحون الرسول

ويذمون قريشا ، وفي هذه الفترة أو بعدها بقليل جدا ظهر شعراء يخيل إلى من يدرسهم أنهم كانوا لا يُعنون إلا بأنفسهم ، ومن هؤلاء الشاعر المعروف باسم « الخطيئة » .

ومضت أيام النبوة ، وأيام الخلفاء الراشدين ، فعاد العرب إلى هذه العصبية الجاهلية ، التي كان الإسلام وحماته ، من لدن محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى على رضى الله عنه ، يذودونها عن العرب ذودا ، ويصدون هؤلاء العرب عنها صدا ، فلما ماتوا ، وآل الأمر إلى غيرهم من بنى أمية ، عادت هذه العصبية الجاهلية ، ونبغ في الهجاء القبلي شعراء ، من أهمهم : الفرزدق ، وجريير ، والأخطل ، والراعي ، والبعيث ، وذو الرُّمة . كل شاعر من هؤلاء يدافع في شعره عن قبيلته القبائل الأخرى ، لا يصدده عن هذا الدفاع سخط يحسه على قبيلته التي يدافع عنها ، حتى لقد قال جريير :

تمنى رجال من تميم لى الرّدى وما زاد عن أحسابهم ذائد مثلى
وكان هؤلاء الشعراء يسلكون في هجائهم وسخريتهم بالقبائل الأخرى طريقة تعتمد على الفخر أولا ؛ فكان شاعر كالفرزدق إذا هجا جرييرا نخر بنفسه ، ليقف خصمه على مكائنه من قومه أولا ، وعلى مكانة قومه من القبائل العربية كلها بعد ذلك . ومن ثم كان الهجاء في القصائد التي تركها لنا هؤلاء يختلط بالفخر اختلاطا تاما ، يصعب معه أن نفضل أحدهما على الآخر .

أما الطريقة الفنية التي كان يسلكها كل شاعر منهم ، فهي طريقة القصة ، فكان كل شاعر يخترع لخصمه قصة في هذا الشعر ، لا يحفل بأنها حق ، أو غير

حق ؛ لأنه كان لا يعنيه منها إلا أن يضحك الناس من هذا الخصم ، وهو مقتنع
بينه وبين نفسه ، بأن الناس لن يصدقوا شيئاً مما اتهمه به .

ومن الأمثلة على ذلك أن الفرزدق رمى جريراً بأنه راود أمه ، وقال عن
كليب أنها خيّرت جريراً بين أن يأتي أمه ، وبين أن يُقتل ، وشنّع على صاحبه
بهذه التهم كلها في شعر هجاه به ، ليضحك الناس منه ، وهو واثق أن الناس
أنفسهم لن يصدقوه في شيء مما رماه به .

وكذلك كان الأمر أيضاً مع جرير بالقياس إلى الفرزدق ، فقد وصفه جرير
بأنه قَيْن وابن قَيْن ومن أسرة قيون (حدادين) ، ورمى أختاله اسمها « جِعْثَن »
بالفاحشة ، وبالغ في هذه التهمة الأخيرة كل المبالغة . والحقيقة نفسها بعيدة عن
كل ذلك .

فالصواب مثلاً في قصة « جعثن » ، أن الفرزدق تعرض لامرأة من قبيلة
(بنى منقر) اسمها « ظمياء » ، فأرسلت قبيلة ظمياء من تعرض لأخت الفرزدق ،
وهي « جعثن » ، فصاحت هذه : يا آل مجاشع ، كما صاحت « ظمياء » يا آل
منقر ، فحاول جرير أن يستغل هذه القصة في شعره . فزعم أن المنقرين جرّوا
« جعثنا » على الأرض ، وفعلوا بها ما فعلوا في ذلك الوقت .

أما قصة القين ، فيقول الرواة إن الأصل في ذلك أن بعض عبيد بنى مجاشع
كان حدادا ، فعُيرت أسرة مجاشع كلها بذلك .

والخلاصة في هجاء الشعراء الذين ظهرُوا في القرن الثاني للهجرة ، أنه كان
هجاء قبلياً ، لم ينس الشاعر فيه نفسه كل النسيان ، وإنما تحدث فيه عن نفسه ،
لا لشيء إلا ليكبر في نفوس الناس ، وتكبر معه القبيلة التي ينتسب إليها ،

وكان كل واحد من هؤلاء الشعراء ، يحرص الحرص كله ، على الفوز في هذه المعركة الشعرية ، حرصه على الفوز في معركة حربية ، بل هو أشد حرصا .

فالأمر عند كل واحد من هؤلاء كان جدا لا هزلا ، وكان حياة أو موتا ، وكان الشاعر إذا فرغ من الفخر بنفسه وبقومه ، وأراد أن يستريح في بعض شعره ، جعل خصمه موضع هذه الراحة التي يطلبها ؛ فأخذ يندد به ، ويسخر منه ، ويشنع عليه ، ليغيظه ويغيظ قومه ، ويثير حفيظتهم . وكان لهؤلاء الشعراء طرق كثيرة في هذه الإغاطة ؛ منها ما كان يقصد إليه جرير أحيانا ، من الإبطاء في الرد على هجاء الفرزدق ، وقصده من ذلك مضايقته ، والعبث به وبصره . فكان يبدأ القصيدة التي يرد بها على الفرزدق عادة بالغزل ، ولكنه كان يطيل في هذا الغزل ، فيعتاظ لذلك الفرزدق ، ويضيق صدره ، كأنما يقول بعد كل بيت يسمعه من أبيات هذا الغزل ، الذي لا يجب أن يسمعه : « دعنا من هذه المداعبة القاسية ، واشرع في الهجوم علينا ! » .

ونحن نخاف أن نطيل على القارئ ، بأن نعرض عليه نماذج من الشعر الهجائي لهذه الفترة التي نتحدث عنها ، ولكننا نحيله على كتاب « النقائض » لأبي عبيدة ، ففيه الكثير من هذه القصائد ، التي تراشق بها أولئك الشعراء ، وتهاجوا بها ، وتنازروا فيها بالألقاب .

وندع القرن الأول للهجرة ، إلى القرن الثاني ، فنلتقي أول ما نلتقى بكاتب عظيم ، هو « عبد الله بن المقفع » ، وهو رجل فارسي الأصل ، يحمل

في أعماق قلبه بغضا عظيما للعرب ، وحبا عظيما للفرس ، ولا يترك فرصة تمر ،
إلا ويظهر حبه وإعجابه بهؤلاء ، وبغضه وسخطه وازدراءه لأولئك .

ونعرف من سيرة هذا الرجل العظيم ، أنه مات مقتولا ، في مؤامرة دبرها
له الخليفة المنصور ، وكانت الأسباب الداعية إلى قتله كثيرة ، من أهمها رسالة
كتبها إلى المنصور هي : « رسالة الصحابة » ، ثار فيها ابن المقفع على الخليفة ،
ووضع يده على معائب الحكومة ، ورسم لها خطة الإصلاح الذي رآه ، فوجد
عليه الخليفة المنصور ، ومنذ يومئذ وهو يترصد الفرص به ليقتله ، وما أيسر
ما كانت هذه الفرص توافي هذا الخليفة . ذلك أن المنصور نفسه كان رجلا
طاغية ، أو كان من أفراد كثيرين في التاريخ الإسلامي معروفين بالشدة ،
والقسوة ، والغلظة المتناهية . والأخبار الدالة على طغيانه كثيرة في كتب الأدب
العربي . ومن أجل ذلك لم يكن يسيرا على ابن المقفع ، مهما بلغت جرأته ،
أن يمضي طويلا في الغلظة على هذا الرجل ، بل كان لا بد له أولا من الترفق به ،
والحذر منه .

وذلك ما فكر فيه ابن المقفع طويلا ، واهتدى من أجله أخيرا إلى طريقة
يسخر بها من المنصور ، ويرشد فيها حكومته إلى الطريقة المثلى في إدارة الأمور ،
فشرع يترجم كتابه « كلبلة ودمنة » ، وهو عبارة عن قصص على ألسنة
البهائم ، جمعها من الأدب الفارسي ، وأضاف إليها من ذهنه بعض الشيء ،
وصرح في صدر كتابه هذا بالأغراض التي من أجلها صنف هذا الكتاب ،
أو قل صرح بثلاثة فقط منها ، ولم يصرح بالغرض الرابع ، حيث قال عن هذه
الأغراض :

أما (أولها) : فما قصد فيه إلى وضعه على السنة البهائم ، ليسارع إلى قراءته
أهل الهزل .

(والثاني) : هو إظهار خيالات الحيوان ليكون أنسا لقلوب الملوك الخ .
(والثالث) : أن يكون على هذه الصورة ، فيكثر بذلك انتساخه ،
ولا يبطل ، فيخلق على مرور الزمن .

(والرابع) : وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة .
على أن هذا الغرض الذي لم يصرح به ابن المقفع ، لم يكن ليخفى على
المنصور ، أو رجال المنصور . فقد كانوا يفهمونه ويقدرونه ، وكان هذا الغرض
هو السخرية من تصرفات الملوك المتعسفين أمثال المنصور ، والتهكم بطغيانهم ،
ثم الرغبة في إرشادهم بهذه الطريقة القصصية ، التي لا مجال للشك في أنها من
خير الطرق الأدبية في أداء هذا المعنى .

ومهما يكن من أمر هذا الكاتب الخطير ، فقد كانت سخريته بشيرا
أو نذيرا بظهور حركة « العنصرية » أو « الشعوية » في المجتمع الإسلامي ،
وكان لهذه العنصرية أو الشعوية أثر واضح في الأدب ^(١) . ثم مهما يكن من
أمر هذا الكاتب الخطير ، فقد كانت سخريته أدنى إلى الجذو والعبوس ، إذا
قيست بسخرية رجل آخر كالجاحظ ، سنرى أن سخريته كانت مرحا كلها ،
وكانت ضحكا كلها ، وأن حياته كانت ظلا لهذه السخرية اللعوب ، أو أن
سخريته كانت ظلا لهذه الحياة ، التي لم تكد تعرف غير البهجة والسرور .

(١) انظر فصل الشعوية في ضحى الإسلام الجزء الأول ص ٤٩ وما بعدها .

والظاهر أن من أسباب هذه الفروق ، بين ابن المقفع والجاحظ ، أن الأول كان كاتباً « مثالياً » ، « أرستقراطياً » إن صح هذا التعبير ، في حين أن الثاني كان أشد ميلاً إلى « الواقعية » أو « الديموقراطية » في عواطفه ، وفي الأدب الذي خلفه^(١) .

على أن هذا القرن الثاني للهجرة ، شهد كذلك شاعراً فذاً ، في الشعر لا النثر ، وكان له في الوقت نفسه ، مذهب في السخرية والهجو ، وهذا الشاعر هو بشار بن برد . وكان ضريراً ، وكانت هذه العاهة مصدر شر على نفسه ، ومصدر شر على غيره . ومن هنا كان شديد الضيق بنفسه ، وبنظام الحياة من حوله . وكان إذا ضاق بنفسه ، التمس لها مخرجاً تتنفس منه ، فتهافت على اللذات ، وأسرع إلى ارتكاب الموبقات ، وتهالك عليها تهالك الرجل الذي ملأ الحزن قلبه ، فخيّل إلى نفسه ، أنه لا مهرب لها من هذا الحزن إلا بشرب الخمر . ومن ثم أصبح بشار شراً على الخلق والدين ، وخطراً على أوضاع المسلمين ، وانتهى به الأمر أحياناً إلى السجن ، فكان السجن لا يزيده إلا ضراوة وقسوة ، وتهالكاً على اللذة والشر . وتركت هذه الأخلاق الجريئة ، والنفس الشريرة البذيئة ، أثرها في هجاء هذا الشاعر ، فكان هجاء يمتاز بالجرأة على الناس ، والنيل منهم ، والرغبة الملحة في إيذائهم ، والاستهتار بهم ، والاستخفاف بأوضاعهم . وكل ذلك لغرض واحد كما نعتقد هو الدفاع

(١) انظر الفصل الرابع ص ١٠٢ من كتاب ابن المقفع للمؤلف .

عن نفسه ، والذود عنها ؛ ولكنه كان إذا أحسَّ أن هجاءه يجلب له أذى مباشرا ،
فكر وقدر ، وتراجع وتقهقر ، وآثر من وقته السلامة والعافية .
قيل إن « حماد مجرد » هجاه يوما بشعر منه قوله :

ويا أقبح من قرد إذا ما عمى القرد !

فصغر بشار في نفسه ، وأحس الذلة في أعماق قلبه ؛ ومع ذلك لم يكلف
نفسه الرد على هذا الهجاء ، خوفا من أن يعرضه حماد لأشد من هذا الإيذاء .
وقيل أيضا أن بشارا هجا رجلا ، واستشعر بعد ذلك الخوف من هذا
الرجل ، فغدا عليه في اليوم التالي ، يقول له : « أما زحك وتأبى إلا الجد » !
ومعنى ذلك أن عنف بشار ، إنما جاء نتيجة لمضايقة الناس له ، وإلحاقهم
الأذى بشخصه ، ولذلك ساء رأيهم في الناس ، وساء قصده لهم ، وانطوت نفسه
الخبیثة على بغضهم ، والتنكر لهم .

على أن شعر بشار ، ليس وحده ، ما يصور لنا نفسه التي تمتلئ خبثا ومكرا ،
وكرهية ولؤما ، وسخرية وحقدا ، وميلا شديدا إلى احتقار العرف والقانون .
بل إن من أحاديثه ما يدل على ذلك .

قيل إن بشارا دخل مرة على المهدي ، فأنشده شعرا ، وكان خال المهدي
وهو رجل يقال له منصور الحميري حاضرا ، وكان يبدو على خاله هذا شيء من
الغفلة . فسأل بشارا : ما صناعتك ؟ فضحك بشار وأجابه بقوله : أثقب اللؤلؤ !
فقال المهدي لبشار : ويلك ! أتتندّر بخالي ؟

وهكذا سخر بشار من غفلة منصور الحميري ، بطريقة لم يستطع المهدي
معاقبته عليها ، وإن كان قد لاحظها ، وأظهر تألمه منها .

وكان لبشار غزل كثير ، ولكنه غزل يدعو إلى المجون ، ويذيع الفاحشة في الجمهور . ويكفي أن تعرف أنه صاحب هذا البيت المشهور ، وهو قوله :

عُسر النساء إلى مُياسرة والصعبُ يُمكن بعد ما حَمَحَا •

والمهم أن هذا الغزل ، الذي يشيع فيه كل هذا المجون ، لم يكن يخلو من سخرية لاذعة ، إما بهذه اللذة نفسها ، وإما بالمرأة التي يدعى بشار أنه يحبها . ويتضح لنا ذلك كله من رأيته التي مطلعها :

قد لامني في خليلتي عمر واللوم في غير كُنْه ضَجَرُ

وفيها يصور الشاعر لنا موقفا من مواقفه ، مع امرأة يزعم أنها فرت إليه من حاضنتها ، وأنه أخذ يقبلها ويعضها ، ويلمس ما دون مرطها ، وأنها كانت مع هذا من اللين بحيث أخذت تشكو غلظته وقسوته ، وباتت لا تستطيع دفعه ، لأنه لا قبل لها برجل في ضخامته وبدانته .

وفي هذه القصيدة الغريبة ، يقول بشار عن نفسه ، إنه الضيق بها لحيته الخشنة ، ذات الشعر الأسود ، الذي كأنه الإبر . فتركت هذه اللحية الكثة الشائكة آثارها واضحة ، في وجه الفتاة البضة الناعمة ؛ فضاقت به ذرعا ، وانطلقت تبكي ، وهي تقول :

كيف بأُمي إذا رأت شفتي أم كيف إن شاع عنك ذا الخبر ؟

قد كنت أخشى الذي ابتليت به منك فماذا أقول يا عِبرُ !!

قلت لها عند ذاك يا سَكَنِي لا بأس أني مجرب خبر

قولي لها « بَقَّة » لها ظفر إن كان في البق ما له ظفر !!

قَبَحَكَ اللهُ من رجل داعر ساخر ، أيها الشاعر الخبيث ، أين البقّة التي لها ظفر تجرح به الناس ؟ لكنها سخريتك الماجنة ، ودعارتك البالغة ، ونفسك المهالكة على اللذة ، ورغبتك في أن تشغل الناس كلهم بالحديث عنك ، وعن فسوقك ومجانتك .

وذلك هو « مركب النقص » عند بشار ، يعرف الناس عنه أنه أعمى ، ومع هذا يزعم لهم أنه فتنة النساء في بغداد ، ويعلم الناس عنه أنه قبيح المنظر ، ومع هذا يزعم لهم أنه ظريف ، خفيف الروح ، وأنه حديث الرجال في أنحاء العراق .

وندع بشارا وابن المقفع ، إلى كاتب آخر جاء بعدهما في القرن الثالث الهجري ، وقدر له أن يكون أبعد صوتا ، وأطول عمرا ، وأفسح قولاً ، وأوسع صدرا ، وهو « الجاحظ » .

والظاهر أن الجاحظ كان كسابقه « ابن المقفع » من الكتاب الأحرار ، لا كتاب الديوان ، والظاهر أنه كانت بينه وبين هؤلاء إحن وبغضاء ، ومن الجائز أن تكون هذه الظروف قد أتاحت للجاحظ فرصة السخرية بهم ، والسخط عليهم .

وكان الجاحظ نفسه واسع الثقافة ، إلى حد أنه يعتبر في نظر المؤرخين لهذه الفترة الذهبية التي عاش فيها ، وهي القرن الثالث الهجري ، موسوعة أدبية وعلمية مُفَنَّنة ، وهذا الكاتب وحده هو صاحبها .

وكان الجاحظ يستقي ثقافته هذه من مصادر عدة ، لعل من أهمها هنا

« الحياة الواقعة » نفسها ؛ ومن ثم كان الجاحظ « واقعيا » في أدبه كما قلنا ،
 بالقياس إلى ابن المقفع ، الذي كان « مثاليا » في كل ما ترك لنا من آثار .
 والمثاليون دائما جادون في تقديمهم ، عابسون في سخريتهم ، يؤثرون العنف
 والقسوة ، ما لم يردّهم عن ذلك خوف من اصطادهمهم بالسلطان . أما الواقعيون من
 أمثال الجاحظ ، فإنهم على خلاف ذلك في الغالب ، يميلون إلى المرح والمداعبة ،
 ويحسنون المراوغة في معرض اللوم والمؤاخذه ، ويقدرّون على أن ينالوا من
 خصومهم ، بطريق الهزل والعبث والممازحة ؛ تتسع الخيل أمامهم للهرب من عدوهم ،
 متى رأوا أنه ضيق عليهم الخناق ، ولا تُعوّزهم الفكرة التي يبررون بها أعمالهم ،
 متى تعرضوا لحاسبة الحكام ؛ وهم بعد هذا كله ، أدنى إلى نفوس العامة ،
 ولا تسأم كلامهم الخاصة ، ولا يتعرضون لهذا الشر الذي يشقى به الجادون
 العابسون ، من أدباء « المثل العليا » .

فلقد كان ابن المقفع أدنى إلى الصراحة والجد ، في سخريته من العرب ،
 ونُظّم العرب ، ودين العرب ؛ بل كثيرا ما صرح في أحاديثه بأن العرب
 ليسوا أهلا لعز أو سلطان ، وأنهم إن كانوا قد ظفروا بشيء منهما ، فإن ذلك
 مما يثير في نفسه العجب والدهش . أما الجاحظ فكان يتكلم في الشيء وضده
 دائما ، بحيث يستطيع أن يمدح العرب ويذمهم ، أو يمدح الفرس ويذمهم ،
 أو يمدح الترك ويذمهم ، وهو في كل حالة من هذه الحالات لا يشعر بأنه جاد ،
 ولكنه يضحك معك ، ويبعثك على الضحك الذي لا يخلو من الفائدة ، وهذه
 الفائدة هي النقد والإيذاء ، إن كان يريد نقدا أو إيذاء ، أو هي الحمد والثناء ،
 إن كان يعنيه أن يحملك على شيء من ذلك .

ولعل من أجمل الكتب التي كتبها الجاحظ الساخر كتابين ، هما : كتاب
« الترييع والتدوير » ، وكتاب « البخلاء » .

أما موضوع الكتاب الأول فهو السخرية بشخص اسمه « أحمد بن عبد
الوهاب » ، ونحن إذا نظرنا في سخرية الجاحظ ، كما تبدو لنا من هذا الكتاب ،
نرى أنها مؤلفة من عناصر شتى .

أولها : عنصر الضحك والمزاح ، وهما الغالبان على طبع الجاحظ كما رأينا ،
وبسببهما يمكن اعتباره من كتاب التنديد أو التندر Humour ، وإذا ذهبنا
نلتمس له نظيرا بين أدباء الإنجليزية ، فنظيره في هذا النوع من السخرية هو
« ديكنز » Dickens . ولا غرابة في هذا ، فهما « واقعيان » في أدبيهما ،
يصدران في هذا الأدب عن براعة ومهارة في التصوير ، كما يصدران فيه عن قدرة
لنظير لها في فهم الجماهير ، ثم عن نفس مرحة ، لا يؤذيها انحراف الفرد أو الجماعة ،
إيذاءً يبعث على الحزن ، الداعي إلى الوعظ والهداية ، ولكن يبعث على الإشفاق ،
الداعي إلى الضحك والزراية .

والثاني من عناصر السخرية الجاحظية ، بعد عنصر الضحك والمزاح ،
عنصر « المسخ » ، أو العبث بالصورة ، وهو ما يسمى عند الأوربيين باسم
« الكاريكاتور » . والجاحظ في هذا العنصر الأخير يعتبر تلميذا في الهجاء
لابن الرومي ، وهو الشاعر الإسلامي الذي برع براعة ممتازة في هذه الطريقة .

وتتموم طريقة الكاريكاتور على المبالغة في تصوير العيوب ، فالرجل
ذو الأنف الكبير يبدو في لوح الرسام وكأن أنفه وحده يزن الوجه كله ،
والرجل القصير يبدو في هذا اللوح كأنه أقصر من الواقع بكثير ، والرجل

الغليظ ، يظهر غليظا بدرجة لا وجود لها في الحياة الواقعة ، وهكذا .

تعرض ابن الرومي لهجاء رجل بلحيته ، فقال :

لو غاص في الماء بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعا !
وهجا رجلا بطول أنفه فقال :

حملت أنفا يراه الناس كلهم من رأس ميل عيانا لا بمقياس
لو شئت كسبا به صادفت مكتسبا أو انتصارا مضى كالسيف والفاص !
وقال يصف بخيلا اسمه عيسى :

يقتّر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد !

وعلى هذه الطريقة ، سخر الجاحظ في رسالة « الترييع والتدوير » من كاتب بغدادى اسمه « أحمد بن عبد الوهاب » ، فزعم له عيوباً ، بالغ في وصفها كما شاء ، وسخر من كل واحد منها كما شاء ، فقد كان هذا الرجل قصيرا ، ويزعم أنه طويل ، كما كان هذا الرجل جاهلا ويزعم أنه عالم ؛ فأخذ الجاحظ يعيب به كثيرا من هاتين الناحيتين .

فما دام أحمد بن عبد الوهاب يزعم أنه من العلم بحيث يحيط بكل شيء ، فهو قادر ، في نظر الجاحظ ، على أن يجيب السائل عن كل شيء ، فليسأله الجاحظ على سبيل « التبكيت » : كيف رأى طوفان نوح ؟ وأين عاد وثمود ؟ وأين طسّم وجديس ؟ وأين جرهم وجاسم ؟ وأين أولاد الناس من السعالى ؟ .

وهكذا يلقي عليه طائفة كبيرة من مثل هذه الأسئلة ، التي قد تبلغ المائة ،

وهو يعلم أن أحدا لا يستطيع الجواب ، ولكنه مع هذا يقول لأحمد بن عبد الوهاب : « ولولا أنك المسئول في كل زمان ، والغاية في كل دهر ، لما تفردت لك بهذا الكتاب ، وما أطمعت نفسي في الجواب » .

ثم من العناصر التي تؤلف سخرية الجاحظ عنصر « التناقض » ؛ فهو مفتون بهذا الضرب من البيان ، والسخرية نفسها عند الكثيرين من أدباء الهجاء ، تقوم على مثل هذه الأنواع . ولذا تراه يعرض علينا صورا كثيرة التناقض من شخص أحمد بن عبد الوهاب ، فهو مرة قصير ، وفي أخرى طويل ، وفي ثلاثة يجمع بين القصر والطول ؛ ثم يقول على لسان هذا الرجل نفسه :

« وما على أن يراني الناس عريضا ، وأكون في حكمهم غليظا ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق . وقد علموا - حفظك الله - أن لك مع طول الباد^(١) راكبا ، طول الظهر جالسا ، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت ، أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة^(٢) غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ؛ فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ؛ بل ما يهملك من أقاويلهم ، ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك ، قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضا ، قد استغرق ما ذهب منك طولا ؛ ولئن اختلفوا في طولك ، لقد

(١) الباد عظم الفخذ . . . والجاحظ يقول إن أحمد بن عبد الوهاب طويل الفخذ حين يركب ، طويل الظهر حين يجلس ، فهو طويل في هاتين الحالتين ، ولكن كان إذا قام أو اضطجع ظهر للناس قصر ساقه فاختلوا فيه .

(٢) الجفرة بالضم : جوف الصدر ، أو ما يجمع الصدر والجنبين .

اتفقوا في عرضك ، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطرا ، ومنعوك بالظلم شطرا ، فقد
حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ... الخ » .

وهكذا يعث الجاحظ بأحمد بن عبد الوهاب ، كما يعث الصبي بالثمينة ،
أو كما تعث الهرة بالجرذ : يخاصمه حيناً ، ويسالمه حيناً ، وهو في المسألة ، أشد
سخرية منه في المحاصمة .

ثم من العناصر التي تؤلف سخرية الجاحظ ، عنصر « العلم أو الثقافة » .
والجاحظ عظيم الحظ حقاً من هذا العلم وهذه الثقافة ، وفي سخريته ميل شديد
إلى الاستفادة من علوم شتى : كعلم الجدل ، وعلم المنطق ، وكالثقافة اليونانية
أيضاً .

ومن ذلك على سبيل المثال ، قوله على لسان أحمد بن عبد الوهاب ، معذراً
عن الذين يذمونهم ، ويتهمونهم بأنه قصير وهو ليس بقصير ، وأنه غليظ وهو
غير غليظ :

« ولعمري إن العيون لتخطي ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع
إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء ،
وعياراً على الحواس الخ » . وفي هذه العبارة الأخيرة إشارة إلى نظرية من
نظريات السفسطائيين ، هي نظرية « كذب الحواس » ، وقد استغلها الجاحظ
في هذه الرسالة ، ووفق توفيقاً عظيماً في الموضع الذي استخدمها فيه من مواضعها .
أما كتاب البخلاء ، فهو ضحكة عالية متصلة من ضحكات الجاحظ ، من
هذا الصنف من الناس ، وسخرية مريرة منهم ، تقوم على الحقائق أكثر من

الخيال ، وعلى الواقع أكثر من الأوهام ، ولكن على أساس من المبالغة والتزديد ،
الذين لا غنى عنهما في أدب السخرية .

وكتاب البخلاء في أيدي القراء ، يستطيعون أن يضحكوا فيه مع الجاحظ ،
ضحكا متصلا من هذا الصنف من الناس ، كما يستطيعون أن يعجبوا فيه أيضا
من دقة الجاحظ في التصوير ، ومن قدرته التي يوشك ألا يكون لها نظير ، على
ملاحظة أتفه الأمور ، دغ عنك أعظمها وأخلقها بعناية العالم أو الأديب .

هذا كله في النصف الأول من العصر العباسي . أما في النصف الثاني ،
فإننا نلتقي فيه بشاعر من أكبر شعراء العربية في مجال السخرية الأدبية ، هذا
الشاعر هو أبو العلاء المعري . كان هذا الرجل ساخرا في شعره ، كما كان ساخرا
في نثره ، ولكننا مكتفون بالإشارة إلى سخريته في النثر ، ومنها كتابه « رسالة
الغفران » ، وفيها يتصور أن صديقا له هو « ابن القارح » ، قد التقى بالشعراء
والعلماء في اليوم الآخر ، فمنهم من وجدته في جهنم ، ومنهم من غفر الله له بسبب
بيت من الشعر ، فكان مصيره الجنة . وهناك في اليوم الآخر شهد صديق الشاعر
معارك شتى بين الشعراء ، كالمعركة التي دارت بين الأعشى ونابغة بني جعدة ،
وفيها يتعدى كل من الشعارين على صاحبه بألفاظ جارحة ، فيقول أحدهما للذي
نجا منهما ودخل الجنة : « ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك » .
وفي هذه العبارة الأخيرة من السخرية بالدين نفسه ما لا يخفى !

ثم يطوف الشاعر بصديقه في رياض الجنة ، حتى يشهد فيها منظرا يبعث
على الضحك من أهل الجنة ، إذ يمر به على رَفٍّ^(١) من الإوز ، ومن شأن هذا
(١) الرف الجماعة من الناس أو الغنم ، هكذا في كتب اللغة . نقول : وقد يقال للجماعة من الطير .

الطير أن يتكلم ، فيقول ما شأنك ؟ فيقلن : ألهمنا أن نسقط في هذه الروضة ،
فنغنى لمن فيها . فيقول : على بركة الله القدير ، فينتفضن ، فيصرن جوارى كواعب ،
يرفلن في وشى الجنة ، وبأيديهن المزاهر ، وأنواع ما يلتمس من الملامى ، فيقول
الشيخ « ابن القارح » للنابعة الجعدى :

يا أبا ليلى ، إن الله جلت قدرته ، من علينا بهؤلاء الحور العين ، اللواتى
حوّلن عن خلق الإوز ، فاختر لنفسك واحدة منهن ، فلتذهب معك إلى منزلك ،
تلاحنك أرق الألحان ، وتسمعك ضروب الأوزان .

فيقول لبيد بن ربيعة :

« إن أخذ أبو ليلى قينة ، وأخذ غيره مثلاً ، أليس ينتشر خبرها في الجنة ،
فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز » ؟

وقريب من هذه القصة قول المعرى فى قصة أخرى من رسالته ما نصه :
« فيقول الملك خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ؛ فإن هذا الثمر يعرف بشجر
الحور ، فيأخذ سفرجلة ، أو رمانة ، أو تفاحة ، أو ما شاء الله من الثمار ،
فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيفاء ، تبرق لحسنها حور الجنان ،
فتقول : من أنت يا عبد الله ؟ . فيقول : أنا فلان بن فلان . فتقول : إني أُمّى
يلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة » .

وهكذا يجرى أبو العلاء على ألسنة الشعراء ألقاظاً ، يفهم منها الناس معنى
السخرية بأهل الجنة . ويكفى أن منهم من يكون من أزواج الإوز ، وأن منهم
من يصح أن يكون من أزواج السفرجل ، أو التفاح ، أو الرمان ، أو ما شاء الله
من الثمار !

وهكذا يضحك « ابن القارح » من أهل الجنة ، ثم يضحك أخيراً من نفسه ، فلقد جعله الشاعر في بعض رسالة الغفران يجوز الصراط ، فلا يستمسك ، حتى يطلبُ إلى جارية من جوارى الزهراء أن تستعمل معه قول الذي يقول :
 سِتَّ إن أعياءُ أمرى فاحمليني زَقْقُونَهُ !

والمعري في كل هذا يسخر في رسالته من يوم القيامة ، ومن الجنة ، ومن النار ، ومن الشفاعة ، ويجعل من علي بن أبي طالب مصححاً بين الملائكة ، ثم يجعل منه حارساً على الحوض ، لا يسقى منه أحداً ليس من شيعته ؛ ويجري على لسان أوس بن حجر قوله : « ولقد دخل الجنة من هو شر مني ، ولكن المغفرة أرزاق ، كأنها النشَب في الدار العاجلة ! » ؛ ثم يعبث المعري في رسالته بالكفار والزنادقة ، في شدةِ مصطنعة ، ويعبث في الوقت نفسه بالمؤمنين والصالحين ، في لين كلين الحية ، ويعرض لإبليس ، فيعذبه في النار عذاباً ألماً ، بأيدي زبانية جهنم ، ولكن لا يصرفه هذا العذاب نفسه عن استخدام الزبانية أنفسهم ، في الكيد للناس في الحياة الأخرى ، كما كان يكيد لهم في الحياة الدنيا ، ويعرض المعري في رسالته للغويين والنحاة ، ويأخذ الشعراء أخذاً شديداً بأخطائهم في النحو واللغة ، ویتهمهم تهكماً ظاهراً بسادات قريش وكهانها ، ويضحك من المعتزلة والحلولية ، ومن القائلين بالتناسخ ، وأخيراً يسخر من الأديان السماوية كلها ، سخرية لا نعرف أشد منها ، إذ ينقل قول يهودي في هجاء عمر بن الخطاب :

يصول أبو حفص علينا بدرة رويدك إن المرء يطفو ويرسب
 فلو كان موسى صادقاً ما ظهر ثم علينا ولكن دولة ثم تذهب
 ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أ كذب

مشيتم على آثارنا في طريقنا وُبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

وعلى هذا النحو ، يمضى شاعر المعرة في كتابه ، فيضحك هذه الضحكة الهادئة ، التي تستغرق كل الكتاب ، والمعرى في كل هذا الضحك الهادئ المتصل ، يصدر عن خلق وادع ، وطبيعة مهذبة ، ومزاج رقيق ، وحس دقيق ، واحتياط شديد ، وحياء من الناس ، وحذر من أن يلفتهم لفتا صريحا إلى عيوبهم ، فيلتفتوا التفاتا جارحا إلى عيبه .

حكى عن هذا الشاعر أنه أكل في يوم دبسا ، ثم خرج لدرسه ، وقد سقط شيء من هذا الدبس على صدره ، فبادره بعض تلاميذه بقوله : أكل الشيخ دبسا ، وهم بأن ينظف له ثوبه ، فاستحى الشيخ وقال : نعم ، قاتل الله الشره ! ثم حرّم على نفسه أكل الدبس فيما حرم ، منذ ذلك اليوم . فأين هذه النفس الوادعة الحية ، من نفس بشار الخبيثة الجريئة ، التي طبعت على الشر واللؤم والإيذاء ! وأين هذا الطبع الذي مرّن على الزهد والحرمان ، من طبع بشار المتهافت على اللذة والمتعة ، تهافت الفراش على النار !

تلك صورة من صور السخرية في المشرق ، خليق بنا أن نذكر صورة مقابلة لها من السخرية في المغرب ؛ وذلك كله قبل أن نعود إلى الحديث عن السخرية في مصر خاصة .

ونحن نعرف أن الأدب العربي في المغرب ، كان مطابقا في كثير من أجزائه للأدب العربي في المشرق ، وأن أدباء الأندلس كانوا محايين لأدباء الشام والعراق ؛

وأن الأغراض الأدبية التي نبغ فيها هؤلاء ، توشك أن تكون هي بعينها الأغراض
الأدبية التي نبغ فيها أولئك .

ولا شك أن من هذه الأغراض الأدبية التي وقع فيها التشابه بينهما ، غرض
الهجاء أو السخرية . وربما كانت (الرسالة الهزلية) لابن زيدون الأندلسي
في ذلك من خير الأمثلة . فلا بأس إذن من أن نُلمَّ بها ، ونوازن بينها وبين بعض
الرسائل التي مرت بنا .

قيل في سبب إنشاء هذه الرسالة : « إنه كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات
خلفاء الأمويين ، تسمى ولادة بنت المستكفي بالله ، ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها
وقتلها ، وغلبة ملوك الطوائف على أمره ؛ ثم صارت هذه المرأة العظيمة تجلس
للشعراء والكتاب . ، وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت
ذات خلق جميل ، وأدب غرض ، ونوادر عجيبة ، ونظم جيد ؛ وكان ابن زيدون كثير
الشغف بها ، والميل إليها ، وأكثر غزله فيها . ثم إن الوزير أبا عامر بن عبدوس
أيضا هام بها ، وكلف بعشرتها ، وكانت ولادة كثيرة العبت به ، ولها معه نوادر
ظريفة .

وكان الباعث المباشر لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن ابن عبدوس
لما سمع بها ، أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه ، وتذكر لها محاسنه ومناقبه ،
وترغبها في التفرد بمواصلته ؛ فبلغ ابن زيدون ذلك ، فكتب هذه الرسالة
وضمنها سبَّ أبي عامر واتهمكم به ، والهجاء له ، وجعلها جوابا له على لسان
ولادة ، وأرسلها عقيب رجوع المرأة ؛ فبلغت منه كل مبلغ ، واشتهر ذكرها

في الآفاق ، وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة ، إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية ، وتوفي بها ^(١) .

أما الرسالة الهزلية نفسها فتبدأ بقوله :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورطُ بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ،
العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على
الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ؛ فإن العجب أ كذب ، ومعرفة
المرء نفسه أصوب ؛ وإنك راسلتني مستهديا من صلتى ما صفرت منه أيدي أمثالك ،
متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ،
مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلى ، وتحلف
بعدها على :

ولست بأول ذى همة دعت له لما ليس بالنائل

ولاشك أنها قلَّتْكَ إذ لم تضنَّ بك ، وملَّتْكَ إذ لم تغز عليك ؛ فإنها أعذرت
في السفارة لك ، وما قصَّرت في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ،
والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ^(٢) ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت
بالكمال ، حتى خيَّلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة
العزيز رأتك فسَلَّتْ عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنظف ^(٣)
عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ؛

(١) من كتاب سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري بتصرف .

(٢) الهيولى : المادة المدبرة للصورة ، وهي أصل المي .

(٣) رجل من العرب أصاب مالا كثيرا ، فضرب به المثل .

والإسكندر قتل دارا في طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن
جماعتك ، والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ،
وشيرين^(١) قد نافست بوارن فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك » .

وهكذا مضى ابن زيدون على طريقته هذه في «تبكيت» ابن عبدوس ،
لا يعدوها إلى طريقة أخرى ، قائلا له على لسان المرأة التي بعث بها إلى ولادة: إنه
أجل من يوسف ، وأغنى من قارون ، وأعظم من كسرى ، وأجل من قيصر ،
وأكبر من الإسكندر ، وإن الضحاك سالمه ، وجذيمة نادمه ، وبنات الملوك
في فارس تنافسن في حبه ، وبلقيس غايرت الزباء من أجله ، والسموئل إنما قلده
في الوفاء بالعهد ، والأحنف بن قيس إنما تشبه به في الحلم ، وإن حاتما لم يفعل أكثر
من أنه لقي الأضياف على طريقته ، وملاعب الأسنة إنما لعب بيده ، وقيس بن زهير
إنما استعان بدهائه ، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائه ، إلى آخر ما أتى
به ابن زيدون ، من هذه الأقوال الدالة على معرفته بالتاريخ العربي القديم ، والأمثال
العربية القديمة ، حتى وصل إلى قوله :

« وهما لم تلاحظاك بعين كليلة عن عيوبك ، ملؤها حيلها ، حسنٌ فيها من
تودٍّ ، ووضعتُ الهناءَ مواضع^(٢) النقبِ بما نسبته إليك ، ولم تكن كاذبة فيما
أثنت به عليك ، فالمُعَيِّدُ تسمع به خير من أن تراه الخ » .

وهنا نقطة التحول في الرسالة الهزلية لابن زيدون ، وذلك من السخرية

(١) شيرين زوجة أبرويزر ولد كسرى ، وبوران ابنته ، ولهما في الأساطير الفارسية خير
معروف . اقرأ سرح العيون ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) هذا مثل لمن يضع الأمور في محلها .

بطريق التبكيت، إلى السخرية بطريق الذم الواضح، والهجاء الصريح؛ ومنه قوله :
كلامك متممة ، وحديثك غممة ، وبيانك فهمة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك
هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة ، حتى إن باقلا موصوف
بالبلاغة إذا قرن بك ، وهَبَّتْهُ (١) موصوف بالعقل إذا أضيف إليك » .

وعلى هذا النمط تمضى الرسالة الهزلية في النّيل من ابن عبدوس حتى نهايتها .
والتأمل في هذه الرسالة يرى ابن زيدون وقد اتكأ في سخريته على طريقة
واحدة من طرق السخرية ، هي طريقة التبكيت ، وهي إحدى الطرق الكثيرة
التي سلكها الجاحظ في رسالة الترييع والتدوير كما رأينا . واختار ابن زيدون
لذلك أسلوبا واحدا لم يخالفه إلى غيره ، هو إيراد الإشارات التاريخية والأدبية
الكثيرة ، يتبع بعضها بعضا على وتيرة واحدة ، ويلحق بعضها ببعض ، كما تلحق
حبات العقد بعضها ببعض في خيط واحد .

وكأنى بقارئ هذه الرسالة يهش لهذه القراءة نفسها أول الأمر ، ثم لا يلبث
أن يضيق بها ، ويسأم كثيرا من عبارتها في آخره ، ثم يخيل إليه أنه نسي أن
موضوعها السخرية بشخص بعينه بعد ذلك .

ونحن إذ نوازن بينها وبين رسالة الترييع والتدوير يتضح لنا فروق شتى بينهما ،
من أهمها هنا : أن شخصية ابن زيدون تذوب ذوبانا سريعا ومعيبا في رسالته
الهزلية ، في حين أن شخصية الجاحظ تظهر لنا من خلال رسالته ، من أولها إلى
آخرها ، لا يكاد الجاحظ نفسه يغيب فيها عن أعيننا لحظة واحدة .

(١) هبنقة: أحد بنى قيس بن ثعلبة ، يكنى أبا الودعات ، لأنه نظم لنفسه ودعا في سلك ،
وجعله في عنقه ، علامة لنفسه ، لثلاثيضيع . قيل إن أخاه راقبه إلى أن نام ، فأخذ العقد من عنقه ،
وجعله في عنق نفسه ، فلما انتبه هبنقة ، ورأى أخاه ، قال له : أنت أنا ، فأنا ترى من أنا ؟
ولهذا يضرب به المثل في المحق .

وفرق آخر بين الجاحظ وابن زيدون ، أن الأول منوع الطرق كما رأينا ، وأن الثاني موحدها كما لاحظنا ، ومصدر التنويع عند أحدهما والتشابه والتوحيد عند الآخر ، أن الجاحظ كان رجلا واسع الأفق ، عظيم الحظ من العلم والثقافة ، ذا قدم راسخة في كثير من العلوم والآداب ، دقيق الملاحظة للناس والأشياء ، منطقي الذهن ، بسبب اشتغاله بعلم الكلام ، وباختصار ، كان الجاحظ رجلا موهوبا من جميع جوانبه .

أما ابن زيدون فرجل واسع العلم بالتاريخ العربي ، والثقافة العربية فحسب . نشأ في الأندلس ، يوم كانت تطارد الفلسفة بعنف وقوة ، وكانت تنظر إلى الثقافات الأجنبية على أنها نبات لا تصلح له تربة عربية إسلامية ، فكان لكل ذلك أثر واضح في الأدب الذي أنتجه ابن زيدون وغيره من أدباء الأندلس في تلك الفترة . على أن هذه الموازنة بين الجاحظ وابن زيدون ، تنهض دليلا واضحا على صدق ما ذهبنا إليه منذ حين ، من أن الفرق عظيم جدا بين سخرية رجل له مشاركة قوية في ضروب كثيرة من العلم والثقافة ، وبين سخرية رجل قصر نفسه وجهده على ضرب واحد من العلم ومن الثقافة ؛ وقد كان ابن زيدون يتشبه في شعره بالبحثري ، وربما كان من غرض ابن زيدون أن يتشبه في نثره بالجاحظ ، فنجح في غرضه الأول ، ولكنه لم يوفق أكبر التوفيق في غرضه الثاني . ومصدر ذلك فيما نرى هو التشابه بينه وبين أولهما ، والتخالف بينه وبين الأخير .

أما البحثري فكان شاعرا لا يأخذ نفسه بثقافة واسعة ، ولا يكلفها حدود منطق الفلاسفة ؛ وأما الجاحظ فكان يمثل العقل الإسلامي في أرق درجاته ، والأدب الإسلامي في أعلى مراتبه ، والثقافة الإسلامية في أقصى منازلها .

السخرية في أدب ابن ممتى

— ٣ —

فى الوقت الذى ظهر فيه المعرى بالشام ، كانت الخلافة المصرية قد مضى على ظهورها وقت كاف لأن يجعل منها خلافة فنية ، تزرى بتلك الخلافة العباسية فى بغداد . وكان الأدب والعلم قد استقر بهما المقام فى مصر ، بعد أن كانا لا يعرفان لهما مقاما غير العراق . فأصبحت مصر قبلة أنظار العلماء والأدباء والشعراء ، وأصبح الأدب المصرى بسبب هذا خليقا بعناية هؤلاء وهؤلاء ، ونمت الشخصية المصرية نفسها شيئا فشيئا ، حتى طغت على غيرها من شخصيات البلاد الإسلامية الأخرى ، ثم ظلت مصر تحتفظ بعظم مكانتها إلى مجيء الأتراك من آل عثمان . وإذ قد عرضنا للسخرية من حيث هى أولا ، ثم استعرضنا بعض ألوانها فى الأدب العربى ثانيا ، فلم يبق إلا أن ننظر فى السخرية المصرية آخر الأمر . ونحن مضطرون هنا أن نكتفى بجزء يسير منها ، هو هذا الجزء الذى رأيناه فى قصص ابن ممتى المصرى . والذى لا نشك فيه هو أن مصر عرفت الأدب الساخر قبل العصر الأيوبى ، وأن كتبنا كثيرة ، وقصائد من الشعر عظيمة ، ألقت فى السخرية

قبل هذا العصر ، ولكن الزمن لم يسمح بعد بالعثور على هذه الكتب ؛ فليس لنا بد إذن من أن نقصر بحثنا في هذه المرة على كتاب « الفاشوش » . ولنا أو لغيرنا ممن يسعدهم الحظ ، فيعثرون على شيء من الآثار الأدبية التي تشير إليها ، أن يكونوا لأنفسهم رأيا في أدب السخرية في مصر عامة ، وذلك بعد أن نعرض عليهم رأيا موجزا في سخرية ابن ممتاى خاصة ، ونوازن بينها وبين سخرية الوهراني . وقد رأينا في الجزء الأول ، من هذا الفصل ، الذي كتبناه عن السخرية ، أن هناك فرقا بين أدب ساخر يصدر عن العامة ، وأدب ساخر يصدر عن الخاصة .

ورأينا من خصائص الأول ، ميله إلى القذف والسباب ، وعدم الاحتياط في اختيار الألفاظ والعبارات التي ترضى الأذواق ، أو تنبوعها هذه الأذواق ، ثم عجزه عن استخدام العلم والثقافة ، وخروجه أحيانا عن حدود الأدب والأخلاق . وذلك أن الشعب نفسه - كما قلنا - قل أن يحسن شيئا من هذه الأشياء .

أما السخرية الصادرة عن الخاصة ، فرأيناها أقل صخبًا ، وأطول نفَسًا ، وأرق لغة ، وأغنى مادة ، وأطف أثرا ، وأقوى عُدَّة ، وأقدر على استغلال العلم والثقافة ، وفي يد صاحبها من الأسلحة ما ليس في يد الأول .

وفرق آخر لاحظناه بين نوعين كذلك من أنواع السخرية ، هو أن أحدهما أميل إلى المرح والسرور ، لا تفارق صاحبه ابتسامة تدل على نشاطه وانبساطه ، كما تدل أحيانا على تظاهره باحتمال الأوضاع ، التي عليها الحياة والأحياء . وأما الثاني فأميل إلى الجد والعبوس ، وصاحبه دائم التفكير والتقطيب ، لا تفارق فيه كلمة « أف » ، ينفس بها عما يشعر به من الضيق ، وما يحسُّه من تبرم بالناس

والأشياء . ومهما يكن من شيء ، فالضحك والابتسام لازمتان من لوازم السخرية الشعبية ، بحيث لا نعرف سخرية من هذا النوع تخلو منهما بحال ما .
أما سخرية الخاصة فهي عابسة حيناً ، وضاحكة أحياناً ، أوهى — كما لاحظنا ذلك في الأدب العربي — جادة ، أو كالجادة عند الأدباء المثاليين ، مبتسمة كل الابتسام عند أدباء المذهب الواقعي .

وفي الجزء الثاني من هذا الفصل ، الذي كتبناه عن السخرية ، رأينا أن الأدب العربي بوجه خاص ، ظهرت فيه جميع هذه التيارات ، فتمثلت فيه السخرية الشعبية تمثلاً واضحاً ، في نقائض جرير والفرزدق والأخطل ، كما تمثلت فيه السخرية العلمية تمثلاً واضحاً ، في أدب الجاحظ والعري ؛ هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأينا السخرية الضاحكة الباسمة في الأدب الجاحظي ، كما رأينا السخرية الجادة العابسة في أدب ابن المقفع ، وهكذا .

والآن نريد أن ننظر في هذه الصفحات القليلة ، التي خلفها لنا أديب مصري ، هو ابن ممتي : كيف نجد هذا اللون من السخرية ؟ وما نوعها ؟ وكيف نضعها في مكانها اللائق بها ؟ وهل كان لهذه السخرية المصرية نظير في السخرية العربية ؟ وهل يتفق هذا الأدب المصري الساخر مع أخلاق المصريين ومزاجهم ؟ وبم تمتاز النكتة المصرية غالباً ؟

وقبل الإجابة عن كل هذه الأسئلة ، يحسن بنا أن نذكر القارئ ببعض هذه الملاحظات :

ننظر في هذه القصص التي وضعها ابن ممتي ، فنلاحظ أولاً أنها توشك أن تكون خالية من ألفاظ صريحة في الذم ، اللهم إلا في موضع واحد ، هو فاتحة

الكتاب ، حيث قال ابن ممتى : « أما بعد ، فلما وجدت أن عقل بهاء الدين قراقوش محزنة فاشوش الخ » ، ثم ساق الكاتب طائفة من النوادر أو القصص وضعها ، وزعم لنفسه وللناس أن قراقوش هو صاحبها ، أو هو الشخص الذى صدرت عنه الحوادث التى تشير إليها ، فإذا قرأ الناس هذه النوادر كلها أو بعضها ، ضحكوا ما شاءوا لأنفسهم أن يضحكوا ، ثم انطلقت ألسنتهم بهجاء هذا الأمير وذمه ، والنيل منه ومن عرضه وعقله وخلقه ، ماشاءوا لأنفسهم أن يفعلوا ؛ وذلك كله دون أن يكون قلم الكاتب نفسه قد جرى بكلمة واحدة ، من الكلمات التى يذم الناس بها قراقوش ، بعد فراغهم من قراءة هذه الأقاويص .

والحق أن ابن ممتى أفلح فى قصده هذا إفلاحا تاما ، بحيث كان كل من يقرأ نادرة من هذه النوادر ، التى أتى بها فى كتابه ، لا يسعه إلا أن يضحك ملء فيه ، ثم لا يسعه إلا أن يندفع فى وصف الأمير بأوصاف تتدرج فى مدارج القبح والتسفيه . والقارى لهذه النوادر الصغيرة على قلتها يجد نفسه مضطرا إلى أن يصف الأمير بهاء الدين بالطيش أولا ، ثم بالنزق ثانيا ، ثم بأخرق ثالثا ، ثم بالغباء رابعا ، ثم بالبله خامسا ، ثم بالعتة سادسا ، ثم بالجنون فى نهاية الأمر ! كل ذلك دون أن يجرى على لسان ابن ممتى نفسه — كما قلنا — صفة واحدة من هذه الصفات ، بل يورد نادرته إيرادا ، من شأنه أن ينطق القارى نفسه بكل صفة من هذه الصفات .

على أن هذه النوادر التى أتى بها ابن ممتى ، وإن خلت من ألفاظ صريحة فى الذم أو الهجاء ، فإنها لم تخل فى الوقت نفسه من ألفاظ كلها فحش وبذاء ، وبكفى أن تعلم أن الكاتب صرح فى بعض النوادر التى كتبها بذكر

العورات ، وساق حكايات ساقطة ، لم نشأ أن يجرى بها القلم في هذه الصفحات ، إذ لم يكن يعيننا نشر الكتاب ، بقدر ما كان يعيننا أن نتعرف إلى هذا اللون الساخر ، الذي ظهر لنا في أدب ابن ممتا .

وقد ذهبنا نسأل عن هذه الأوصاف التي وردت في كتاب الفاشوش ، أهى حقا من صفات الأمير قراقوش ؟ فأدهشنا كثيرا - كما حدثنا بذلك التاريخ الصحيح - أننا لا نجد لها عينا ولا أثرا .

فالتاريخ الصحيح لم يذكر أكثر من أنه كان رجلا لا يؤثر اللين ، ولا يعرف الكسل ولا التراخي في تنفيذ الأمور ، وأنه كان بالفعل شديدا على القاهريين ، ممن استخدمهم في بناء الأسوار وإقامة الحصون ، فكان إذا لمح منهم رجلا ذاهبا في الصباح إلى عمله الذي يكسب منه قوت أهله ، استوقفه وأرغمه على العمل معه ، ثم أعطاه أجره ، فيأخذ الرجل هذا الأجر صاغرا ، وهو يتميز من الغيظ ، لأن الأمير سخره ، وأوغر صدره وأتعبه ، وحرمه لذة العمل الذي كان يؤثره على غيره من الأعمال .

ومعنى ذلك أن أهل القاهرة وحدهم كان لهم العذر في كراهية هذا الأمير ، ولكن الأمير نفسه لم يكن أهلا لكل هذه الكراهية التي جلبها له نشاطه ، وسببها له إخلاصه ، وكانت نتيجة لمباغتته في خدمة البلاد وأميرها ، ورغبته رغبة صادقة في تأمينها وتحصينها . وأين هذا التسخير البسيط مما كان يفعله الفراغنة في قدماء المصريين ، حين كانوا يسخرون الآلاف المؤلفة منهم في بناء مقبرة ، لا تنفع غير أمير أو ملك من الملوك ، وقل أن يكون من ورائها نفع لغيره من أفراد الرعية . !

ومن يدري ، لعل ابن مماتي ، أحب فيما أحب أن يستغل هذا الظرف الذي كان فيه الأمير بهاء الدين مكروها من أكثر القاهريين ، فأذاع عنه هذه النوادر ، التي كتبها بلغة يفهمها القاهريون ، ثم ما أسرع ما سرت سريان البرق عند غيرهم من أهل البلاد الأخرى .

وقد كان يمكن أن نصدق ابن مماتي فيما كتبه عن هذا الأمير ، لو أنه - كما قلنا - قد اختار من الأوصاف ما يتفق وأخلاق الأمير ، كأن يصفه بالظلم أو العسف ، أو كأن يصفه بالسرف في العمل إلى حد الخرق أو الطيش ؛ ولكنه حرص الحرص كله على أن يصف الأمير بالبله والعتة والشذوذ ، واعتمد في ذلك على خياله وتصوراته ، أكثر من اعتماده على تأملاته ونظراته . فترك لخياله هذا أن يتصور الأمير على هذا النحو من الغفلة ، وهو يعلم أن الأمير قد دبر أمر القاهرة تدبيرا يشهد له بالحكمة وعلو الهمة ، وأنه أدى واجبه بشيء من الصرامة ، التي بعثت في قلوب القاهريين خوفا منه ورهبة له .

انظر إلى قصة كهذه القصة التي حكى فيها : « أن امرأة ذهبت تشكو إليه ابنها ، لسوء معاملته لها ، فأمر الأمير بحبسه ثلاث سنين ، ثم رجعت الأم إلى بيتها ، فشق عليها بعد ولدها عنها ، فندمت على ما فعلته ، وعادت في اليوم التالي إلى أعوان الأمير ، فأشاروا عليها بالذهاب إليه في مجلسه ، وأن تقول له متى رآته : لقد مضت مدة السجن يا مولانا ، وجئت لأسترد ولدي ، متى سمح بذلك الأمير . فيصيح الأمير المأفون في وجهها : لا يا امرأة ، لا يحق لك أن تسترديه إلا مساء الغد ، فانتظري حتى تغرب الشمس ، فإذا غربت فتعالى لأخذه ، فهنا نسمح لك به ! » .

أى غفلة هى أشد من هذه الغفلة ؟ وأى عتته هو أظهر من هذا العتته ؟ ولكنه خيال الكاتب وسوء قصده ، ورغبته فى إضحاك الناس من قراقوش ومن عقله .

* * *

ونحب الآن أن نتعرض للإجابة الموجزة عن الأسئلة السابقة :

ما نوع السخرية التى نراها فى كتاب ابن ممتاى ؟

ليس صحيحا أن يقال إنها من نوع التهكم أو اللذع Irony ، وهو أرقى أنواع السخرية ، لأن طريقة ابن ممتاى هنا لا تعتمد على ثقافة أو علم ، ولا حظ لها مطلقا من تعمق أو جد ، ولا صلة لها كذلك بذكاء أو فهم ، ولأن الكاتب لا يصطنع فيها التورية وغيرها من الألوان البلاغية ، الملائمة لهذا النوع من السخرية ؛ وكيف يعتمد الكاتب فى هذه النوادر على بعض هذه العناصر ، وهو إنما كتبها للشعب .

بل من الجائز أن تكون هذه القصص الصغيرة نفسها من صنع هذا الشعب ، أخذها ابن ممتاى من أفواه العامة فى المجالس ، ثم ردها عليهم قصصا ونوادر مجموعة فى كتاب ، يقرءونه فى هذه المجالس .

أقول من الجائز أن يكون الأمر كذلك ، لأننى ذكرت من قبل ، أن ابن ممتاى قد اعتمد فى هذه النوادر كلها على خياله الخاص ، ومن يدرى ، لعله اعتمد عليه وعلى خيال الشعب معا ، فى وقت واحد .

وليس صحيحا كذلك أن يقال عن نوادر ابن ممتاى إنها من نوع الفكاهة أو التندر Humour ، وهو نوع ممتاز من أنواع السخرية ، لا يميز فيه إلا رجال عندهم مواهب من نوع خاص ؛ كالموهبة التى كانت لرجل كالجاحظ من أدباء العربية ، أو ديكنز Dickens من أدباء الإنجليزية ؛ وعن الأخير بوجه أخص

يقول الإنجليز إن لفظ Humour لو لم يوجد في اللغة الإنجليزية ، لوجد من أجل هذا الكاتب .

أجل ليس صحيحا أن يقال عن كتاب ابن ممتى إنه من نوع الفكاهة بهذا المعنى ، لأن صاحب الفكاهة أو التندر ، يحكى عن الشخص الذى يتندر به طائفة من الوقائع ، التى حدثت لهذا الشخص عينه بالفعل ، غير أن مهارة الكاتب هى فى أن يختار من هذه الوقائع أشدها تأثيرا فى النفس ، وأصدقها تصويرا لهذا الشخص ، ثم يجتهد من هذا وذاك فى أن يخلق لها جوًّا يلائمها ، ويهيئ الأذهان لتفهمها ، بحيث تترك فيها الأثر الذى أراد . وقد قلنا إن ابن ممتى يعتمد فى هذه النوادر التى كتبها على الخيال من حيث هو أولا ، فيضع الأمير نفسه جانبا ، ويخلقه خلقا ثانيا ، ويحرص على ألا تكون ثمة صلة ما بين الشخص الحقيق والشخص الخيالى .

فإذا لم تكن النوادر التى نحن بصددتها (تهكما) بالمعنى الأول ، ولم تكن (فكاهة وتندرا) بالمعنى الثانى ، فليس بدُّ إذن من أن تكون سخرية فى أبسط صورها ، وهى الصورة التى أطلقنا عليها اسم (الهزل أو المزاح) ، وقلنا إنها على ضربين : ضرب خفيف مقبول ، وضرب ثقيل ، وليس إلى احتماله من سبيل . وهذه النوادر التى كتبها ابن ممتى هى من الضرب الثقيل ، الذى سماه الفرنسيون فى آدابهم باسم La Grosse Plaisanterie . وقد رأينا أن هذا المزاح الثقيل ، قائم فى كتاب ابن ممتى على ما سميناه (التشنيع) ، وهو ذكر الحوادث المقتعلة ، فى إطار من المبالغة الصارخة . على أن كاتبنا هنا لم يصطنع فى كتابه شيئا من التحفظ والاحتياط ، ولا حاول أن يستخدم بعض هذه العناصر ، التى قلنا إنها تميز

صاحب النوع الثانى من أنواع السخرية ، وهو (الفكاهة أو التندر) Humour ؛ فدل ذلك كله على أنه لا يمكن أن يكون واحداً من هؤلاء الفكهين المتندرين ، وأنه لا سبيل إلى أن نقرنه إلى الجاحظ وأبى العلاء وغيرها من الساخرين ؛ ولكنه إذا جاز لنا أن نقيسه بأحد فى الهجاء والسخرية ، قسناه بجرير أو الفرزدق أو الأخطل ، ومن إليهم من الشعراء ، الذين اشتركوا فى المعركة الهجائية التى أشرنا إليها .

وأى فرق بين ابن ممتى فى نوادره وجرير فى نقائضه ، أكثر من أن جريراً هجا بالشعر ، وأن ابن ممتى هجا بالنثر ؛ وأن الطريقة عند هذا الأخير هى (التشنيع) ، وعند الأول أحيانا هى (التعريض) ؛ ولأمر ما شاع أن أهجى بيت قالته العرب هو قول جرير :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً !

ومع ذلك فثمة فرق بين جرير والفرزدق والأخطل من ناحية ، وابن ممتى المصرى من ناحية ثانية ؛ ذلك الفرق أن جريراً وأصحابه كانوا يعتمدون فى هجائهم على حادثة من الحوادث ، يمسخونها أو يشوهونها أو يفسرونها تفسيراً قبيحاً ، يلائم الغرض الذى من أجله نظموا قصائدهم فى الهجاء والسخرية ؛ على حين أن ابن ممتى كان يخلق الحوادث اختلاقاً ، ويتوهم الأحاديث بين غريمه وبين الناس توها ؛ وذلك أمعن فى التشنيع ، لأن التشنيع بالمعنى الذى وجدناه فى كتاب ابن ممتى ، هو تزوير الحوادث على هذا الوجه ، وإيجادها من عدم على هذا النحو . وما أتعب الشخص الذى يحاربه عدوه بسلاح من هذا النوع ! ولله در القائل :

لى حيلةٌ فيمن ينمّ وليس فى الكذاب حيلة !
من كان يخلق ما يقو ل فحيتى فيه قليله !

وللإجابة عن السؤال الثاني وهو :

هل كان لهذا النوع من السخرية المصرية نظير في السخرية العربية ؟
نقول : إننا لا نعرف أدبياً عربياً جمع طائفة من النوادر ، وقصد بها إلى السخرية
من شخص بعينه ، صغيراً كان أو كبيراً ، عظيماً كان أو حقيراً ، على نحو ما فعل
ابن ممتى . ولكن الأدب العربي بعدُ حافل بكتب من نوع آخر ، ونعني بها
كتب الحمقى والمغفلين . وسبق أن قلنا إن أصحاب هذه الكتب لم يكونوا يقصدون
بها شخصاً بعينه ، ولا طائفة بعينها . والظاهر أن هذه الطريقة من طرق الإضحاك
والسخرية ، طريقة عربية خالصة ، وليست مأخوذة عن أمة أخرى ، كما متى بالفرس
أو الروم . فلقد خالط العرب هاتين الأمتين العظيمتين ، ولم يفيدوا من إحداها شيئاً
ذا بال في السخرية . فأما اختلاطهم بالفرس ، فلم ينتج للأدب العربي في هذه الناحية
أكثر من كتاب كليل ودمنة . وأما اختلاطهم باليونان فلم يؤذن فيه للأدب
اليوناني لترك أثره في الأدب العربي ؛ ولو سُمح لهذا الأدب اليوناني أن يؤثر
في أدبنا الإسلامي ، لأتصل الكتاب والشعراء في بلاد الإسلام بمثل سوفوكل
ويوروييد وغيرهما من أدباء اليونان ، ولعرفوا فن الرواية الهزلية Comidy بوجه خاص ،
ولربح الأدب العربي الإسلامي من وراء ذلك ربحاً ليس إلى وصفه من سبيل .
والواقع أن الأدب اليوناني لم يؤثر في أدبنا الإسلامي لا بشكله ولا بموضوعه ،
وتلك خسارة كبيرة علينا ، ما كان أجدربنا أن نتلافى وقوعها ، لولا أن الأدب
اليوناني نفسه أدب وثقى ، ما كان ينبغي لشعب إسلامي أن يقبله ، أو لحكومة
إسلامية أن تأذن به .

ومع ذلك فقد أثر الأدب اليوناني في أدبنا الإسلامي عن طريق آخر ، هو

طريق الفكرة أو المعنى . وبحسبنا هنا الإشارة إلى أبي تمام وأبي الطيب المتنبي ،

ثم الإشارة إلى قول مسلم بن الوليد في هجاء دعبل :

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل
وإلى قول أبي نواس في نفس المعنى :

بما أهجوك لا أدري لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت في عرضك أشفقت على شعرى

فان في هذه الأبيات لشاعرين كبيرين كسلم وأبي نواس ، ما يذكّرنا بقصة
أوردها القفطى في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء ^(١) عند ذكره هوميروس
حيث قال :

كان هذا الرجل من رجال يونان ، وجاءه (أتابو) الماخن فقال : اهجنى
لأفتخر بهجائك ، إذ لم أكن أهلاً لمديحك . فقال له : لست فاعلاً ذلك أبدا .
قال : فإني أمضى إلى الرؤساء اليونانيين ، فأشعرهم بنكولك .
فقال هوميروس مرتجلاً :

بلغنا أن كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص ، فامتنع عليه أنفةً منه .
فقال له الكلب : إننى أمضى فأشعر السباع بضعفك . قال له الأسد : لأنّ تُعَيِّرَنى
السباع بالنكول عن مبارزتك ، أحبُّ إلى من أن ألوث شاربى بدمك !
أجل إن أبيات أبي نواس ومسلم في القرن الثالث الهجرى ، تذكّرنا بهذه القصة
التي رواها القفطى عن هوميروس في القرن السابع قبل الميلاد . وبرغم المسافة الزمنية

الكبيرة بين المؤرخ والشاعرين ، فإن أيسر ما يؤخذ من كل ذلك ، أن الأدب الإسلامي لم يخلُ قط من أفكار يونانية تسربت إليه ، ومعان أجنبية أثرت فيه .

* * *

وننتقل من ذلك أيضا إلى السؤال الثالث وهو :

هل جاءت هذه السخرية التي رأيناها في كتاب « الفاشوش » ، مطابقة للمزاج المصرى فى الفكاهة ، أو ملائمة للطبع المصرى فى المداعبة ؟

والإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة كما قد يظن ، وإن كنا نلاحظ فى مصر فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، كما نلاحظ فى الأدب المصرى قبل هذا العصر الذى نعيش فيه ، أن النكتة المصرية لفظية قبل كل شئ ، فهى تقوم مرة على الجناس ، وأخرى على التورية . كما نلاحظ أيضا أنها نكتة قصيرة فى الغالب ، تمرّ سريعة كالبرق ، وتنطلق على أثرها ضحكة سريعة ، شبيهة بالسنّة النار ، التى يلعب بها الصغار ؛ أما النكتة القائمة على الفكرة ، فشئ لم يألفه الطبع المصرى بعد .

وفى كتاب « ثمرات الأوراق » لابن حجة الحموى ، نماذج كثيرة من النكت المصرية الخفيفة ، ومنها على وجه المثال قوله :

« حكى عن السراج الوراق (وهو شاعر من شعراء العصر الأيوبى) ، أنه جهّز غلاما له يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به ، فأحضره ، فوجده زيتا حارا ، فأنكر على الغلام ذلك ، وأخذته وجاء إلى البائع ، وقال له : لم تفعل مثل هذا ؟ فقال له :

والله يا سيدى مالى ذنب ، لأنه قال : أعطنى زيتا للسراج »^(١) .
« واجتمع محدث ونصرانى فى سفينة ، فصبَّ النصرانى من ركوة كانت معه فى مشربة ، وشرب ؛ وصب وعرض على المحدث ، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة ، فقال النصرانى :

جُعِلت فداك ، هذا خمر .

فقال : من أين علمت أنها خمر ؟

قال : اشتراها غلامى من خمار يهودى ، وحلف أنها خمر عتيق . فقال المحدث للنصرانى : أنت أحمق ، نحن أصحاب الحديث ، نروى عن الصحابة والتابعين ، أفصدق نصرانيا ، عن غلامه ، عن يهودى ؟ والله ما شربتها إلَّا لضعف الإسناد^(٢) !
فهذه وأمثالها من النكات المصرية ، التى امتلأت بها كتب الأدب ، تدلنا كما قلنا ، على أن النكتة المصرية مبنية على اللفظ أكثر من المعنى ؛ والاعتماد فيها على التورية ، أكثر من الاعتماد على أى شىء آخر .

والظاهر أن النكتة المصرية كالنكتة العربية ، لاتغفل العناية بهذه الأمور وأشباهها ، إلا عند ما تتحدث عن الحمقى ، والجانين ، والمغفلين ، والطفيليين ، وغيرهم من الشخصيات التى تكون صحيحة الوجود فى أول الأمر ، ثم تصبح ضربا من الأساطير فى نهايته .

ومن هذا القبيل كل ما تعلم عن قصص «جحا» ، و «أشعب» ، و «هَبْنَقَة» ،

و «ابن الجصاص» ، وغيرهم . ومن مثل ذلك :

(١) كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الموحى ص ٥٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠ .

« قيل إن لصا تسوّر روزنة^(١) بيت، وكان اللص مغفلا، فنظر من خلال الروزنة،

فوجد رجلا وزوجته، وهي تقول له: من أين اكتسبت هذا المال العظيم؟
فقال لها: كنت لصا، وكنت إذا تسوّرت روزنة بيت، صبرت إلى أن يطلع
القمر، فإذا طلع اعتنقت الضوء الذي في الروزنة، وتدلّيت بلا حبل، وقلت:
شولم! شولم! ونزلت، فأخذ جميع ما في البيت؛ ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت
إلا ظهرت لى. ثم أقول: شولم! شولم! وأصعد في الضوء، ولا ينتبه أحد من
أهل البيت، وأذهب بلا تعب ولا كلفة.

فسمع اللص ذلك، فصبر إلى أن طلع القمر، ونام أهل البيت، فتعلق
في ضوء الروزنة، فوقع، وتكسّرت أضلاعه، فقام إليه صاحب البيت، وقبض
عليه، وسلمه إلى صاحب الشرطة.

« وقيل إن أحد المغفلين، سأل مغفلا آخر:

كم في هذا الشهر من يوم؟

فنظر وقال: لست والله من أهل هذه المدينة! »

« وسمع أحد المغفلين أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة كاملة، فصام

إلى الظهر، وقال:

يكفينى ستة أشهر! »

« وجاء جماعة إلى رجل مغفل، يسألونه في كفن لجارية لهم ماتت،

فقال: ما عندي الآن شيء، ولكن عاودوني في وقت آخر!

قالوا: أفنملحها إلى أن يتيسر عندك شيء؟ »

(١) الروزنة: البكوة.

والناظر في هذه النوادر وأشباهاها ، يجد أنها تضحك لا بلفظها ، ولكن بغرابتها وشذوذها ؛ كما يلاحظ في هذه النوادر أنها قصيرة ، حتى إن بعضها لا يعدو ألفاظا يسيرة ، يمكن أن يضمها سطر واحد أو نصف سطر واحد .

ثم لا شك أن القارئ التفت بنوع خاص إلى النادرة الأخيرة من هذه النوادر ، وعرف أن لها نظيرا في كتاب ابن ممتي . ومن هنا يدرك صحة ما قلناه من أن ابن ممتي قد اخترع هذه القصص اختراعا ، وأخذ بعضها من أفواه العامة ، وكتب بها كتابا على مثال سابق احتذاه ، ونموذج حاكاه ؛ وهذا المثال هنا هو كتب المغفلين والحقى . والفرق بين ابن ممتي وبين من سبقه في ذلك ، هو أن ابن ممتي جمع هذه النوادر كلها ، وألصقها إلصاقا بالأمير بهاء الدين قراقوش ، وأما الذين من قبله فجمعوا نوادرهم ، وألصقوها بأشخاص ربما كان لهم وجود حقيقي في أول الأمر ، ثم أصبحوا أبطالاً لقصص خيالية ، ونوادر شعبية في آخره .

* * *

وبعد ، فإننا لانستطيع أن نخفي عجبنا من ظاهرة أخرى في كتاب ابن ممتي ، وهي اشتماله على عدد بسيط من النوادر ، التي نسبها إلى بهاء الدين قراقوش . فهل كان كتاب الفاشوش لا يشتمل على أكثر منها ؟ وهل ضاق خيال ابن ممتي ، فلم يتسع لأكثر من هذا العدد ؟

الواقع أننا نميل إلى الظن بأن النسخة الأصلية من كتاب الفاشوش لابن ممتي ، لم يُعثر عليها بعد ، وأنه لو عُثر عليها لوجد بها أكثر من هذا العدد .

بين الوهراني وابن ممتي

ننظر في الآداب الشعبية التي خلفها لنا العصر الأيوبي ، فنرى أنها اشتملت على كتاب آخر — غير كتاب الفاشوش لابن ممتي — هو الكتاب الذي أشرنا إليه في بعض الفصول السابقة ، ونعني به « رسائل الوهراني » .

والوهراني « هو أبو عبد الله ، محمد بن محرز بن محمد الوهراني ، الملقب ركن الدين ، وقيل جمال الدين ، أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وفنه الذي يمتُّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلاد ، ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني وتلك الحلبة ، علم من نفسه أنه ليس من طبقهم ، ولا تنفق سلعه مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد ، وسلك طريق الهزل ، وعمل المفاجآت والرسائل المشهورة المنسوبة إليه ؛ وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس ، وفيها الدلالة على خفة روحه ، ورقة حاشيته ، وكمال ظرفه » (١) .

وهكذا جاء كتاب الوهراني هذا ، كما جاء كتاب ابن ممتي دليلاً على أن العصر الأيوبي ، برغم ميله إلى الجد ، وبرغم اشتغاله بأمور الحرب ، كان له جانب

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان جزء أول ص ٥١٨ .

آخر ، هو جانب الهزل ، فأضاف هذا الهزل لونا براقا إلى مجموعة الألوان القائمة ،
التي اصطبغ بها عهد الدولة الأيوبية .

والوهراني نسبة إلى «وهران» في بلاد المغرب ، ومن الضروري هنا أن نوضح
أن المغاربة كانوا مكروهين من أهل مصر ؛ وذلك منذ العصر الفاطمي ، حين
كان الخلفاء الفاطميون يؤثرون هؤلاء المغاربة ببعض الوظائف العليا ، فكثير
تهمك أهل مصر بهم ، وسخرهم من طبائعهم ؛ واستمر أهل مصر يفعلون ذلك حتى
كان العصر الأيوبي ، فعصر الماليك ؛ فوجدنا في كتاب النجوم الزاهرة
لأبي المحسن ، أثرا لهذه الظاهرة ، بحيث كان أهل مصر إذا وصفوا رجلا بكثرة
الكلام ، مع الغلظة والادعاء والغباء ، سموه «بالمغربي»^(١) .

ومن ثم نفهم سببا من الأسباب التي من أجلها أخفق الوهراني في الحصول
على وظيفة من وظائف ديوان الإنشاء ، والأسباب التي من أجلها ذهب هذا
الرجل يسخر من أهل مصر ، ويتناول بتهكمه القضاة والفقهاء والعلماء والكتاب
والشعراء والوزراء والمتصوفة ، بل أتباع المذهب السني نفسه أيضا ؛ وربما كان
الغرض الأول من أغراض الوهراني في رسائله ، هو النيل من كبار الدولة الأيوبية ،
وإخافتهم وإزعاجهم ، حتى يضطروا إلى إسكاته ، بمساعدته ليحصل على وظيفة
من وظائف الدولة .

وانظر إلى الوهراني يغمز القاضي الفاضل في شيء من الحذر والرفق ، إذ جاء
في رسالة من رسائله التي نشير إليها ، توجه بها إلى الأمير نجم الدين بن مصل ، فقال

(١) النجوم الزاهرة : حوادث سنة ٨٤٣ هـ ، وفيها توفي الأمير سودون الظاهري المغربي .
انظر الجزء السابع — قسم أول . طبعة Popper .

كان العبد قد عزم على مخاطبة الناضل - أدام الله عزه - في هذا المعنى ،
فذكر قول القائل :

أتيت فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام !
فقال مخاطب نفسه : أيها الرجل الرقيق ، بأي شيء تريد أن تكاتب هذا السيد
الرئيس ؟ ما أنت من النظراء ، ولا من الأكفاء ، فتكتب إليه تسأله عن حاله ،
وتستطلع طلع أخباره ؛ ولو فعلت ذلك كنت من الأغبياء المجانين
ولا هو طيب النفس عليك ، ولا جميل الرأي فيك ، فتكتب إليه تسأله أن
يصطنعك بعنايته ، ويدبر أمرك مع ابن ظفير . . . ألا تراك سلّمت عليه (أى على
الفاضل) في القاهرة ، فزوى وجهه عنك ، حتى كأن الشمس طلعت عليه من جبينك !
إلى آخر ما جاء بهذه الرسالة ^(١) .

ومن رسائل الوهراني التي كتبها على لسان بغلته ، إلى الأمير عز الدين
مُوسى ^(٢) :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الملوكة (ريحانة) بغلة الوهراني ، تقبل الأرض بين يدي المولى عز الدين ،
حسام أمير المؤمنين ، نجّاه الله من حر السعير ، وعطّر بذكركه قوافل العير ، ورزقه
من القرط والتبن والشعير ، وسقّ مائة ألف بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية
من الجم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير . وتُنهى ما تقاسيه من مواصلة الصيام ،

(١) رسائل الوهراني - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤ أدب ص ٢٤٧ ، ٤٨ ب

(٢) هو من أمراء الدولة الأيوبية ، وخالد صلاح الدين ، وإليه نسب شارع الموسيقى المشهور
بالقاهرة .

وسوء القيام ، والتعب في الليل والدواب نيام . قد أشرفت مملوكته على التلف ،
 وصاحبها لا يحتمل الكلف ، ولا يوقن بالخلف ، ولا يحل به البلاء العظيم ،
 إلا في وقت حاجتي إلى القضييم ، لأنه في بيته مثل المسك العبير ، والإطريف^(١)
 الكبير ، أقل من الأمانة في الأقباط ، والعقل في رأس قاضي سنباط ، فشعيه
 أبعد من الشعري العبور ، لا وصول إليه ولا عبور ، وقرطه أعز من قرط مارية ،
 لا يخرج به بيع ولا هبة ولا عارية ؛ والتين أحب إليه من الأبن ، والجلبان أعز
 من دهن البان ، والقضييم بمنزلة الدر النظيم ، والقضة أجمل من سنبك الفضة .
 وأما القول فمن دونه ألف باب مقفول^(٢) ، فما يهون عليه أن يعلف الدواب
 إلا بعيون الآداب ، والفقهاء الباب ، والسؤال والجواب ، وما عند الله من الثواب .
 ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا توصف بالحواس ، ولا تعيش بسماع العلوم ،
 ولا تطرب إلى شعر أبي تمام ، ولا تعرف الحارث بن همام ، ولا سيما البغال التي
 تشتغل في جميع الأشغال ؛ شبكة من القصيل ، أحب إليها من كتاب التحصيل ،
 وقمة من الدريس ، أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس ؛ لو أكل البغل كتاب
 المقامات ، مات ، فإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ، ضاع ؛ ولو قيل له أنت هالك ،
 إن لم تأكل موطأ مالك ، ما قبل ذلك ؛ وكذلك الجمل ، لا يتغذى بشرح أبيات
 الجمل ، وحزمة من الكلا ، أحب إليه من شعر أبي العلاء ، وليس عنده طيب ،
 شعر أبي الطيب ؛ وأما الخيل ، فلا تطرب إلا لسماع الكيل ؛ وإذا أكلت كتاب
 الذيل ، ماتت في النهار قبل الليل ، والويل لها ثم الويل ، ولا تستغنى إلا كاديش
 عن الحشيش ، بكل ما في الحماسة من شعر أبي الحريش .

(١) الإطريف دواء مؤلف وهو نوعان كبير وصغير — انظر شرح القاموس . وهو
 الإطريفال أيضا كما في تذكرة داود .

(٢) كذا بالأصل والصحيح مقفل ، والكتاب لا يخلو من عامية .

وإذا أطعمت الحمار ، شعر ابن عمّار ، حل به الدّمار ، وأصبح منفوخا كالطّبل ، على باب الإصطبل . وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاف ، وعرض عليه مسائل الخلاف ؛ وطلب من تبنيه خمس قفاف ، فقام إليه بالخفاف ، فحاطبه بالتقدير ، وفسّر عليه آية العير ؛ وطلب منه ويبة شعير ، فحمل على عياله ألف بعير ؛ فانصرف الشيخ منكسر القلب ، مُنْعَظًا^(١) من الثّلب ، وهو أنحس من ابن بنت الكلب ، فالتفت إلى المسكينة ، وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة ؛ وقال لها : إن شئت أن تكدي فكدي ، لا ذقت شعيرا ما دمت عندي ! فبقيت المملوكة حائرة ، لا قائمة ولا سائرة ؛ فقال لها العلاف : لا تجزعي من حباله ، ولا تلفتي على سباله ، ولا تنظري إلى نفقته ، ولا يكون عندك أخس من عنفقه .

هذا الأمير عز الدين ، سيف المجاهدين ، أُنْدى من الغمام ، وأمضى من الحسام ، وأبهى من البدر ليلة التمام ، يرثي للمحروب ، ويفرج عن المكروب ، وهو نبيّ بنى أيوب ؛ لا يرد قائلا ، ولا يخيب سائلا .

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام ، جذبت الزمام ، ورفضت الغلام ، وقطعت اللجام ، وشقت الزحام حتى طرحت خدها على الأقدام ، ورأيك العالى والسلام . ما أظرف هذه الرسالة في طلب هبة ؟ لا شك أن الوهراني حين عمد إلى هذه الطريقة في المدح وطاب المال ، كان موقفا في غرضه من ناحية ، وكأنه كان مدفوعا إلى ذلك بدافع من يأسه من الوظيفة التي أتى مصر لأجلها ، من ناحية ثانية .

(١) كذا بالأصل وهي عامية وصحتها مقتاظا .

ثم من رسائل الوهراني رسالة يتهم فيها برجال الدين ، وبكثرة ما يقومون به من الصلاة والطعام في رمضان . وقد خاطب بها أحد القضاة ، ومنها قوله :

كلما ذكر الخادم تلك الموائد الخصبية ، وما يجري عليها من الخواطر المصيبة ، علم أن التخلف عنها هي المصيبة ؛ لكنه إذا ذكر ما يأتي بعدها من القيام والقعود ، والركوع والسجود ، علم أن أجره ما يأكله في تلك الوليمة ، نحو من عشرين تسليمة ؛ كل لقمة بنقمة ؛ ما تحصل له الشبعة ، إلا بأربعين ركعة ؛ فتكون الدعوة عليه لا له ، والحضور في الشرطة أحب إليه .

فزهد الخادم حينئذ في الوصول ، وقنع بالحصول ؛ إذ ليس له من الدين ، ولا قوة اليقين ، ما يهجر معه مؤاكلة الوجوه القمرية ، بمشاهدة السنة ؛ ولا يترك الراحة تحت المراويح ، إلى القيام بسنة التراويح ؛ لأنه في ذلك على رأى القاضى النجيب ، الذى إذا دعى إليها لا يجيب ، فموعد الإمام ، انقضاء شهر الصيام^(١) .

ومن رسائل الوهراني وفيها يسخر من الفقهاء المدرسين رسالة عنوانها « سؤال سأل عنه ابن الحكم المدرس لمذهب الحنفية » :

ما تقول السادة الفقهاء رضى الله عنهم فى رجل يرى أنه من أئمة الشرع ، ومن أرباب الأصل والفرع ، ويعتقد أن له الدرجة المنيفة ، فى مذهب أبى حنيفة ؛ ويقول : لو جادلت مالكا ، لصرت له مالكا ، ولو لقيت ابن ادريس ، لسلم إلى منه التدريس ، ولو أدركت ابن حنبل ، لكنت أتقى منه وأنبل .

وسرّه - وفقكم الله - يخالف نجواه ، وفعله يكذب دعواه ، وذلك أنه يبيح
الفروج للفروج ، ويستحل سفك الدما ، على البيض والدّمي ، ويأخذ بأرخص
الأقوال ، في استباحة الأموال الخ .

والجواب على لسان الفقهاء :

إن صح ما ذكر عنه من هذا الحال ، وكثرة الإخلال ، فيجب أن يُعزّر
بدّيّا ، ويُنبذ قصّيّا ، بعد أن يُنتف من ذقنه ما طال وما قصر وما بين ذلك
وما كان ربك نسيا ، وليس من التحقيق الجائز أن يدفع مال الوقف للعجائز ؛
فإن فعل ذلك أخذ من نفقته ، مع شعرات من عنفقه ، وإن يثب للفرار ، فليس
له إلا الطرطور والحمار . هذا مقتضى الدليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ^(١) .

ومما كتب في التهم بالشعراء رسالة له في نقد قصيدة ميمية تنسب إلى رجل
اسمه الكندي ، فخر فيها بنفسه ^(٢) ، وجاء في هذا الفخر قوله :

سبقتُ إلى غايات كل فضيلة يعزُّ على طُلَّابِهَا الْعَرَبَ وَالْعُجَمَا ^(٣)

قال الوهراني : فهذا البيت المصيبة العظمى ، والطامة الكبرى ، وليس ينبغي
أن يُجاوب فيه إلا بجواب الفقي الأميِّ لعدى بن الرقاع ؛ وهو أن يُحضره
بعض السلاطين ، ويقول له :

أنت قلت : سبقتُ إلى غايات كل فضيلة (البيت)

فيقول له : نعم . فيرمى له قوسا . ويقول له : حُرْ ^(٤) هذا القوس .

(١) رسائل الوهراني ص ٥

(٢) ص ١٤٩

(٣) كذا بالأصل

(٤) من الحوز وهو الاغراق في نزع القوس .

فيقول : ما أقدر . فيقول : اصفعوه ، فيصفع .

ثم يُقدِّم له فرسا ورمحا ودرعا ، ويقول له : قاتل هذا الغلام بهذا السلاح .

فيقول . ما أقدر ولا أعلم ، فيصفع .

ثم يقول له : حل لنا شكلا من إقليدس . فيقول : لا أعلم ، فيصفع .

فيقول : يابن عشرة آلاف (قحبة) ؛ وأى شيء تعلم حتى تقول :

سبقت إلى غايات كل فضيلة !

فيقول : أعلم شيئا من النحو والتصريف لا غير .

فيقول له : ولا أجل النحو والتصريف تقول :

سبقتُ إلى غايات كل فضيلة !

ثم قال الوهراني : وكذلك يكون حاله في البيت الذي بعد هذا ، وهو قوله :

وملّكني رقّ المناقب أنى أحطت بأداب الورى كلها علما

وهكذا أيضا في البيت الذي بعده ، وهو قوله :

فما منصف ممن ترقّت به العلا برقاقة من أخصى فوقه وصما^(١)

وهذا البيت - والله - من الشعر النحس ، الذي لو بقى في بطنه لأخذه

القولنج زائدا على ما فيه من الرعونة والقحّة والاستخفاف بالممدوح . وأما قوله :

إذا وطى الضرغام أرضا تضايقت خطا وحشها عنه فيوسعها هزما

فإنه وإن كان من الشعر الذي تمجّه الأسماع ، وتشناه النفوس ، فما له عندي

جواب إلا (الضراط) المغربى الصلب ؛ يُصنّى في جوف لحية قائله ، من مكان

قريب !

(١) كذا بالأصل

وللوهرائى فيما عدا ذلك مقامات ومنامات اشتمل عليها كتابه الذى نحن
بصدده . ومن أهمها « المنام الكبير » ، وفيه تخيل أنه رأى فيما يرى النائم
كان القيامة قامت ، والمنادى ينادى : هلموا إلى العرض على الله . قال : فخرجت
من قبرى أيم الداعى ، إلى أن بلغت أرض المحشر الخ^(١) .

وهناك التقى الوهرانى بأناس كثيرين ، قدامى ومحدثين ، منهم الفقهاء
والعلماء ، ومنهم الخطباء والأدباء والشعراء ، وفيهم الفلاسفة والمتكلمون ،
والمتصوفة والملوك والسلاطين ، وذلك كله على نحو يذكرنا برسالة الغفران
لأبى العلاء المعرى .

واتخذ الوهرانى من منامه هذا وسيلة إلى السخرية بهؤلاء جميعا ، فسخر منهم
فى أسلوب يمتاز بالخفة والطرافة والرشاقة ؛ وذلك بالقياس إلى أسلوب المعرى الذى
امتاز بشيء من الجد والتكلف ، كما امتاز بميل إلى الإغراب فى اللفظ ، والغموض
والالتواء فى المعنى .

وكذلك عرّض الكاتب بالكثيرين من أفاضل مصر ، وأهل العلم والأدب
والسياسة فيها ، وكان ممن عرّض بهم العماد الأصفهاني ، وذلك فى رسالة هزلية
من رسائله ، بعث بها إلى صديق له بدمشق ، بدأها بغزل فيه شيء غير قليل من
الفحش ، وختمها بالسخرية من العماد الأصفهاني ، ومن غلام اسمه « مرتضى المغنى »
كان يحبه العماد ، ويفتن به^(٢) .

ثم من الأمثلة على رسائل الوهرانى قوله فى قطعة صغيرة منها :

(١) رسائل الوهرانى ص ٨ ب

(٢) رسائل الوهرانى ص ٨٦ ب

عشرة أشياء من أبواب البر تسخط الله ، وترضى الشيطان ، وهى :
انقطاع ابن الصابونى إلى الله عز وجل فى القرافة . وتعصب الخبوشانى
لقبر الشافعى ، وتنفل القاضى قبل صلاة الجمعة وبعدها ، ، وصلاة
السيد الطيب التراوىح فى شهر رمضان ، وبكاء الفقيه البهاء على المنبر يوم الجمعة ،
وقراءة الوهرانى السبع فى صبيحة كل يوم ، وسماع ابن عثمان لحديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى جمعة واحدة وإقراؤه لذلك على رءوس الأشهاد ، وحضور
ابن ممتى لمجالس الوعظ فى القرافة ، وبكاؤه عند قراءة القرآن ، ،
وبنيان ابن أبى الحجاج لقبر آسية ، وترتيب القراء لكل جمعة فيه .
ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبأ الله بها ، وهى أحب إلى إبليس من
كبار الذنوب^(١) ! .

تلك أمثلة من كتابات الوهرانى ، وهى فى مجملها مكتوبة بلغة عربية صحيحة ،
وبأسلوب العصر الذى كتبت فيه تلك الرسائل الهزلية اللطيفة . ثم هى أيضا
لا تقوم على طريقة واحدة من طرق السخرية ، كما نجد ذلك فى كتاب ابن ممتى ،
بل هى متنوعة فى موضوعها ، متنوعة فى الطرق التى سلكها الوهرانى فى تأليفها :
مرة يمجى تهكم الكاتب فى صورة رسالة ، وفى أخرى يأتى تهكمه فى صورة
مقامة ، وفى ثالثة يكون على هيئة منام ، ثم فى رابعة يأتى فى ثوب حكم وأمثال ،
يخترعها الكاتب اختراعا ، ولا يعتمد هنا على الحكم القديمة ، أو الأمثال المحفوظة .

وذلك كله بخلاف ما نرى عند ابن ممتى ، فقد اعتمد على طريقة واحدة ،
هى طريقة النوادر ، واصطنع لها لغة شعبية خالصة هى لغة العامة .

ومع ذلك فلم تبلغ رسائل الوهرانى ، على تنوعها وطرافتها وفصاحتها ، بعض
ما بلغته نوادر ابن ممتى ، على قصرها وقلمتها وعاميتها ؛ فما سبب ذلك يا ترى ؟
سببه فيما نعتقد أن موقف كل منهما كان مغايرا كل المغايرة لموقف الآخر ،
من وجوه عدة :

فالوهرانى رجل غريب ، أخفق إخفاقا تاما فى الحصول على وظيفة حكومية ؛
وابن ممتى رجل مصرى ، تقلد وظيفة من أكبر وظائف الدولة الأيوبية ، وكان له
اتصال بكبرائها وفضلائها وذوى الجاه فيها ، وكانت له مشاركة ظاهرة فى توجيه
السياسة المصرية الداخلية نفسها كما رأينا .

ورسائل الوهرانى مكتوبة باللغة العربية الصحيحة فى الجملة ، والأسلوب
البديعى المنمق ، فى حين أن كتاب ابن ممتى مكتوب باللغة العامية ؛ ومن ثم
ذاعت رسائل الوهرانى فى أوساط ضيقة ، هى الأوساط التى لها حظ من الأدب
والثقافة .

أما كتاب ابن ممتى فلا بد أنه وصل إلى الشعب كله ، وتناقله الأفراد يوما
بعد يوم ، وساعد على هذا التناقل قصر النوادر التى اشتمل عليها .

ثم إن الوهرانى كان كثيرا ما يصرح بأسماء الذين تعرض لهم فى كتابه
(الرسائل) ، وكاد يمس جانبا حقيقيا من جوانب النقص فيهم ، وهو حين كان
لا يصرح بأسمائهم يأتى بعبارات تدل عليهم ، وتشير إليهم ؛ فلا يحتاج القارىء
إلى جهد فى معرفتهم .

وفي التصريح بذكر أسماء الخاصة ، وتناولهم على هذه الطريقة خطر عظيم على الكاتب ، إلا حين يترفق الكاتب نفسه ترفقا عظيما ، ويلذع لذعا خفيفا ، ويعتمد اعتمادا واضحا على التورية وغيرها من الأنواع البديعية ، التي تضمن السلامة لصاحبها في مثل هذه المواقف المخرجة .

أما ابن ممتاى - فإنه وإن صرّح بأنه يقصد في كتابه إلى ذم قراقوش - فإنه لم يمسّ جانبا صحيحا من عيوبه ؛ فلو لم يذكر صراحة أنه قصد إلى رجل بعينه ، لما استطاع الناس أن يعرفوا هذا الرجل بعينه . ومن ثم وجدت نوادره الطريق سهلا أمامها للذيع والانتشار ، واشتد ذيوها كما رأينا في الوقت الذي ضعف فيه الأمير ، واصطلحت عليه محن كثيرة ، انتهت به إلى لزوم بيته .

أما بعد ، فهذه صفحة من صفحات السخرية المصرية ، الممنابها إلمامة سريعة ، وضاهينها بصفحات أخرى من السخرية العربية مضاهاة يسيرة . وغرضنا من وراء ذلك أن نجذب الناشئة في مصر والشرق ، إلى بحث الموضوعات الأدبية العامة على هذا النحو ، وأن نصل بينهم وبين أدبنا المصري بوجه أخص .

وما أشدّ سرورنا بعد ذلك حين يأخذ الكثير من بحوثنا الأدبية ، مثل هذا الاتجاه ؛ فلا بأس على البحث نفسه أن يكون أقلّ ميا ، ولا ضرر على التاريخ الأدبي أن يكون موضوعيا لا زمنيا . والله نسأل أن يوفقنا دائما إلى ما فيه خير العلم والأدب .

كلمة شكر

يسرني أن أقدم وافر الشكر،
لحضرة الأديب، محمد عبد العاطي
حلاوة أفندي الطالب بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول، لا شترأ كه معي
في تصحيح التجارب.

كما يسرني أن أسدي خالص شكرى
لحضرات الناشرين أصحاب مكتبة
ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده
على ما بذلوه من جهد فني في إخراج
الكتاب على هذه الصورة.

مصر الجديدة في أول يناير ١٩٤٥ المؤلف

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٤
قراقوش	٩
قراقوش فى حراسة القصر الفاطمى	١١
قراقوش منشئ الأعمال الحربىة	١٦
قراقوش الجندى فى حصار عكاء	٢٠
قراقوش يحمى عرش العزيز	٢٣
قراقوش الوصى على عرش المنصور	٢٩
قراقوش وابن ممتى	٣٤
ترجمة ابن ممتى	٣٦
كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش	٤٧
نظرة فى كتاب الفاشوش	٦٢
حكم التاريخ	٦٨
السخرىة فى الأدب	٧١
أنواع السخرىة فى الأدب	٧٢
السخرىة فى الأدب العربى	٨٥
السخرىة فى أدب ابن ممتى	١١١
بين الوهرانى وابن ممتى	١٢٦

فهرس الأعلام



« ١ »

ابن الأثير (ضياء الدين الجزري) : ٢٤، ٢٣

أحمد بن عبد الوهاب : ١٠١، ١٠٠، ٩٩

أحمد بن حنبل : ١٣١

الأخطل : ١١٣، ٨٨، ٧٦

إسماعيل باشا : ١٧

أسد الدين (شيركوه) : ٢٥، ١٠، ٩، ٣

٤٠، ٣٩

الأفضل بن صلاح الدين : ٢٥، ٢٤، ٢٣

٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٦

الإسكندر (المقدوني) : ١٠٨

أشعب : ١٢٣

الأحنف بن قيس : ١٠٨

الأعشى : ١٠٢

أتابو : ١٢١

أوس بن حجر : ١٠٤

إياس بن معاوية : ١٠٨

(ب)

باقل : ١٠٨

البحترى : ١١٠

بدر الجمالي : ٣٩، ٣٨، ١٨

بشار بن برد : ١٠٥، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٣

البعيث : ٨٨

بلقيس : ١٠٨

أبو بكر الهروى : ٤٣

بوران : ١٠٨

(ت)

أبو تمام : ١٢١

(ج)

الجاحظ : ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٣، ٩٢، ٧٨

٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٩

١١٠، ١١٣، ١١٧، ١١٩

جحا : ٦٣، ٢٣

جذيمة الأبرش : ١٠٨

جرير : ١١٩، ١١٣، ٨٩، ٨٨، ٧٦

ابن الجصاص : ١٢٣

جعثن : ٨٩

جمال الدين القفطى : ١٢١، ٤٢، ٣٧

جوهر الصقلي : ١٨

(ح)

حاتم : ١٠٨

الحاكم بأمر الله : ٦٦

أبو الحريش : ١٢٩

حسام الدين أبو الهيجاء : ٢٦

الخطيئة : ٨٨

حماد عجرد : ٩٤

(ش)

شمس الدولة بن أيوب : ١١

شيرين : ١٠٨

(ص)

ابن الصابوني : ١٣٥

صفر الدين بن شكر : ٤٢، ٤١، ٣٧

صلاح الدين بن أيوب : ١١، ١٠، ٤، ٣

١٩، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢

٣٢، ٢٧، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢٠

٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٧، ٥٥

١٢٦، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٢، ٥٩

أبو الصلت : ٣٩

(ض)

الضحاك : ١٠٨

(ظ)

الظاهر (ابن صلاح الدين) : ٢٥، ٢٣

٤٣، ٣١

ابن ظفر : ١٢٨

ظمياء : ٨٩

(ع)

العاذل بن أيوب : ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣

٤١، ٤٠، ٣٦، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩

العاذل الفاطمي : ١٦٩، ٣

ابن عبدوس : ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦

العزيز (ابن صلاح الدين) : ٢٤، ٢٣، ١٧

٦٥، ٣٦، ٣٣، ٢٩، ٢٧، ٢٦، ٢٥

عدي بن الرقاع : ١٣٢

ابن حنبل (أحمد) : ١٣١

ابن الحجاج (علم الدين) : ٤٤

(خ)

الخيوشاني : ١٣٥

ابن خلكان : ٤٥، ٣٥

(د)

دارا : ١٠٨

دعبل : ١٢١

دكنز (تشارلز) : ١١٧، ٩٨، ٨٢

(ذ)

ذو الرمة : ٨٨

(ر)

الراعي : ٨٨

ابن الرومي : ٩٩، ٩٨

ريتشارد : ٢٥

(ز)

الزباء : ١٠٨

زنكي : ٩

ابن زيدون : ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦

(س)

السراج الوراق : ١٢٢

ابن سناء الملك : ٦٤، ٢٧

السموئل : ١٠٨

السيوطي (جلال الدين) : ٥٥، ٤٥، ٧

٦٠، ٥٩، ٥٦

سوفوكل : ١٢٠

سويقت : ٧٨، ٧٧

محمد (صلى الله عليه وسلم) : ٨٨

محي الدين بن عبد الظاهر : ٥٥

مرتضى (المغنى) : ١٣٤

المستكنى بالله : ١٠٦

مسلم بن الوليد : ١٢١

المعري (أبو العلاء) : ١٠٣، ١٠٢

١٠٤، ١٠٥، ١١٣، ١١٩، ١٢٩

١٣٤

المعدي : ١٠٨

أبو المحاسن بن تغريبردي : ١٢٧

ابن مكنسه : ٣٩

أبو المليح (الخطير مماتي) : ٣٦، ٣٨

٤٥، ٣٩

ابن المقفع : ٨٣، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦

١١٣، ٩٧

ابن مماتي (الأسعد) : ٦، ٧، ٨، ٣٤، ٣٥

٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥

٥٣، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٨٥

١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥

١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥

١٢٦، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧

المنصور (الأيوبي) : ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٦٥

المنصور (الخليفة العباسي) : ٩١، ٩٢

المنصور الحميري : ٩٤

المهدي (الخليفة العباسي) : ٩٤

المؤتمن : ١١

المؤيد الشيباني : ٤١

عز الدين بن موسك : ١٢٨، ١٣٠

علي (رضي الله عنه) : ٨٨

العماد الأصفهاني : ٣٦، ٦٤، ٦٩، ١٢٦

١٣٤

عماد الدين الشهيد : ٩

عمر (رضي الله عنه) : ١٠٤

عمر طوسون (الأمير) : ٤٥

عيسى الهكاري : ٣، ٢٠

(ق)

ابن القارح : ١٠٢، ١٠٤

قراقوش (بهاء الدين) : ...

قريط بن أنيف : ٨٧

قارون : ١٠٧، ١٠٨

قيس بن زهير : ١٠٨

(ك)

الكمال (ابن العادل) : ١٧، ٦٥

كرانوقا : ٨، ٤٥، ٦٦، ٦٧

الكندي (شاعر) : ١٣٢

(ل)

ليبد بن ربيعة : ١٠٣

(م)

الماذرائيون : ٤٢

مالك بن أنس : ١٢٩، ١٣١

المتنبى : ١٢١، ١٢٩

محمد علي باشا : ١٧

محمد بن ادريس الشافعي : ١٢٩، ١٣١٤

(و)

ولادة : ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦

ولبول : ٧٧

الوهراني : ١٣٠، ١٢٧، ١٢٦، ١١٢، ٦٤

١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٣، ١٣١

(ي)

ياقوت : ٤٤، ٤٠، ٣٧

يوروپيد : ١٢٠

يوسف (عليه السلام) : ١٠٨، ١٠٧

(ن)

نابغة بني جعدة : ١٠٢

النجاشي : ٨٧

نجم الدين بن مصال : ١٢٧

نجم الدين أيوب : ٩

أبو نواس : ١٢١

نور الدين محمود : ١٠، ٩، ٣

(هـ)

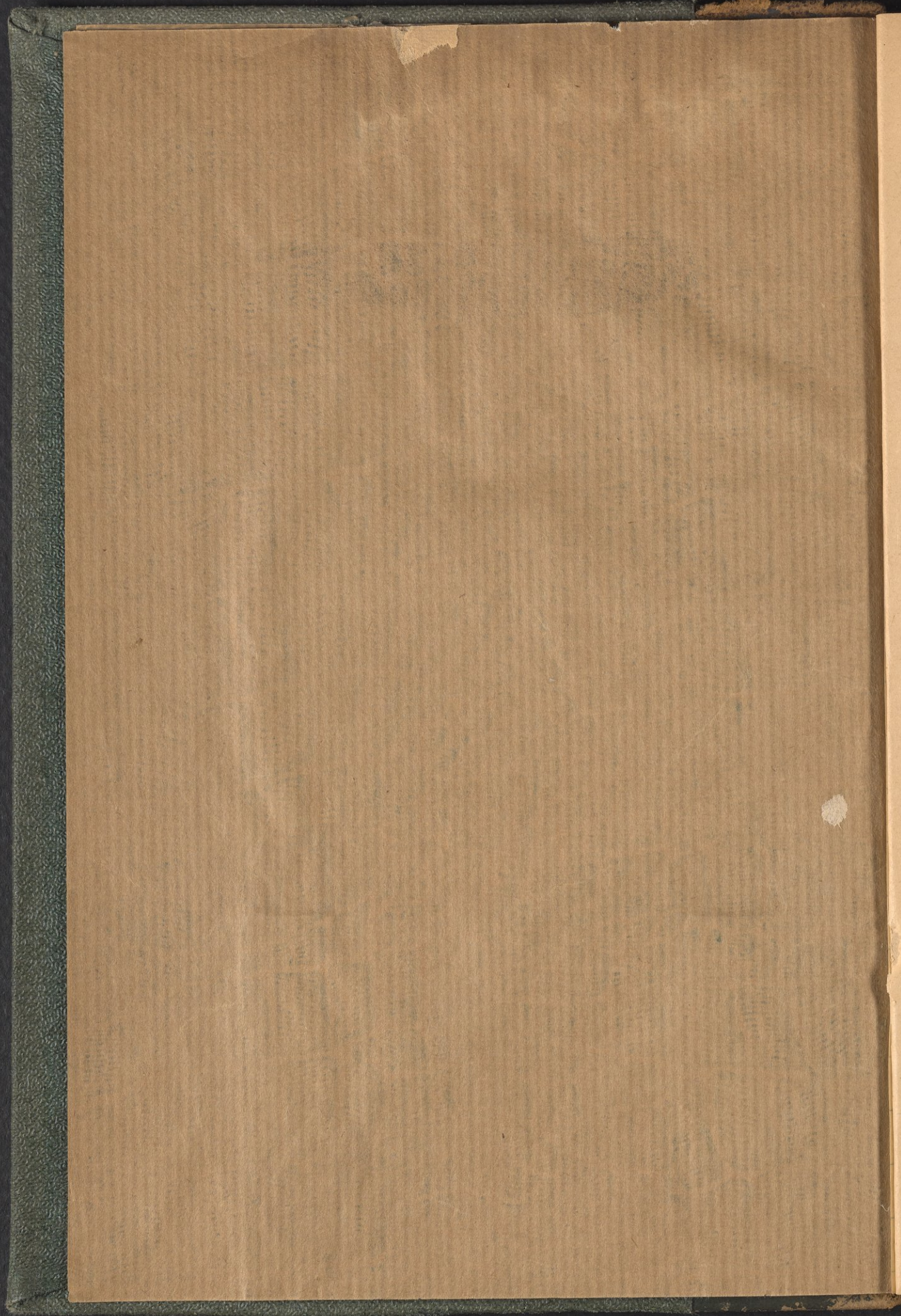
هبنقة : ١٢٣، ١٠٩

هوميروس : ١٢١

٦٠١٢٤٦٥٣١ x
١٠١٣٨١٥٥٢٩٥

تم بعون الله طبع كتاب « حكم قراقوش »
في ١٧ من محرم سنة ١٣٦٤ هـ (١ من يناير
سنة ١٩٤٥ م)

مدير المطبعة
رستم الحلبي



AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 	
 A.U.C. 	
 A.U.C. 	

PJ
7578
H26
1945

The American University in cairo
Library January 27, 1993



0 0 0 0 0 2 7 8 1 1 1

